A L I B A D E R

رواية
NOVEL

علي بدر

ملوك الرمال



رواية
NOVEL

عَلِي بَدْر

مُلوكُ الرمَال

الطبعة الثالثة

3

ketab.me
Best Books

مُلوكُ الرِمَالِ

ملوك الرمال / رواية عربيّة
علي بدر / مؤلّف من العراق
الطبعة الثالثة، 2011

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :11-5460 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب: 9157، عمّان 11191 ـ الأردنّ،
هاتف 5605431 6 00962 / 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
محمد سيف ® عمّان 95297109 7 00962
لوحة الغلاف : ميخائيل لارينوف / روسية
التنضيدّ : المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس / بيروت ، لبنان

ISBN 978-614-419-041-8

(آه أيها الرجل البري
حينما تمر نفحة إلهية على الصحراء)

Ernest Psichari

1913 ، G. Oudin ، Paris ، L'Appel des armes

الجزء الأول
«جنودٌ طغاةٌ وبدوٌ ملهمون»

-١-

لم نكن نسمع في الليل غير جنازير دباباتنا وقعقعة السلاح ، وكان ثمة جنود جدد أربكتهم ملابسهم الكاكية ورشاشاتهم ، يتكومون في عنابر الثكنات حول فتيلة نار ذاوية ، كانوا يشعلون سجائرهم منها ويدخنون في الظلام ، ولم نكن نرى منهم غير اشتعال جمرات السجائر في الأفواه ، والدخان الأبيض المتصاعد حيث تطويه هبات هواء متتالية . .

**

كنّا في كتيبة المغاوير الثالثة والعشرين ، حينما جاءتنا الأوامر المستعجلة للالتحاق بفصيل جديد ، وتنفيذ مهمة قتالية ، أطلق عليها ذلك الوقت «غارة الصحراء» ، وهي ملاحقة مجموعة من البدو ، لأسرهم أو قتلهم ، بعد أن قاموا بذبح ثلاثة من ضباطنا عند التلال الحمراء الواقعة في الجنوب الغربي من العراق ؛ كانت الريح تهب من جهة الشرق ، وكان جنود الثكنة يحتمون بالخيام القليلة ويتدثرون ببطانيات مخططة من الصوف ، إنهم ينتظرون ساعة الصفر ، بيد أنها لا تأتي أبداً ، وعند سياج العنابر كان الحرس يتأهبون ببنادقهم ،

كما لو كانوا يرصدون الليل من فوق هضبة ، مصغين إلى الهمهمات التي تحملها الرياح ، وإلى البرد الذي يأتي من الصحراء ، يحمل معه الخفافيش التي تطير في الظلمة وتجن صائحة في تيارات الهواء .

**

لقد جاءتنا الأوامر فجر يوم من أيام يناير من العام ١٩٩١ بعد أن التحقنا بالخنادق المتاخمة للحدود السعودية بيومين فقط ، وكانت الاستعدادات لحرب الخليج الثانية سريعة ومكثفة ، ذلك أن قوات التحالف من الجهة المقابلة كانت تستكمل استعداداتها للحرب ، وكنا نحن من طرفنا نشيد الخنادق الدفاعية في الخطوط المقابلة لحفر الباطن ، أي من الجهة الأخرى من الحدود .

في الواقع لم نكن نعلم في البداية عن هذه المهمة القتالية أي شيء ، بل تم انتدابنا بسرعة كبيرة عن طريق برقية استخبارية سرية ومستعجلة جداً ، ولم تتضمن هذه البرقية المقتضبة التي استلمها ضابط المخابرة- وهو ضابط قصير ، أسمر الوجه ، عيناه صغيرتان ، يسير بسرعة كبيرة ومن النادر أن يتكلم- عن هذه المهمة القتالية أي شيء ، باستثناء أن نجلب معنا عدة القتال الكاملة :

البندقية الرشاشة ، وفائضاً من الذخيرة الحية ، والحربة المسمومة مع عدة ميدان المعركة ، وكيس التموين الذي يحتوي على الأرزاق الجافة مع الخارطة المفصلة ، والنطاق العريض ،

والبسطار[1] الخاص بالمعارك التي تشن في الصحراء .

ثم سلمها بدوره إلى ضابط استخبارات ، له وجه الجرذ ، يتكلم بصوت هادئ وخفيض ويتمتع بسرية نادرة .

(١) البسطار : جزمة ميدان المعركة .

-٢-

فجر اليوم التالي كنت سمعت نفير البوق الذي انفجر مع صبغة السماء الغسقية ، وهنالك كان ضوء خفيف يرتسم في أفق الصحراء البعيد . لقد تجلت السماء شاسعة زرقاء حيث تومض نجوم الفجر المتوهجة ، وبين الرمال كانت خيام الجنود ترتفع بهدوء مثل نُدُبٍ كثيرة على وجه أبيض . ما هي إلا لحظات حتى أخذت الصيحات تتعالى من كل مكان تقريباً ، لم أكن أميز مصدر الصوت ولا اتجاهه ، كنت استيقظت بسرعة كبيرة ، فضربت غطاء اليطغ[٢] الثقيل بقدمي ونهضت سريعاً لأرتدي البدلة الخاصة بميدان المعركة ، فشعرت ببرودة الصباح وهي تقرص وجهي ، ويخشخش تحت قدمي رمل بارد ، تمازجه من حين لآخر طلقات مدوية تأتي من السواتر الأمامية .

في الجانب الآخر من المعسكر شاهدت نوعاً من النشاط المحموم للحرس الذي يجلجل ببنادقه ، والجنود الذين يغتسلون بطشوت الماء البارد ، وجلبة سيارات الزيل الثقيلة التي تعبر نحو

---

(٢) اليطغ : فرش النوم في الجيش .

الضفة الأخرى من الهضاب الرملية المتوهجة ، بينما انبعثت من المستودعات القريبة رائحة الفحم والبارود والرطوبة الكثيفة .

وبدأت بارتداء ملابس الميدان في الخيمة مع الصخب العالي الذي يأتي من كل مكان ، ارتديت على عجل بدلتي المرقطة ، وبسطاري ، ووضعت الذخيرة في جعبتين على خصريْ ، وتحسست الحربة إلى جانبي ، ورشاشي ، وارتديت القلنسوة الكاكية على رأسي ، وهرعت راكضاً نحو السياج المقابل لخندق ضابط الاستخبارات ، بينما كانت هنالك طائرة هليكوبتر تحط في مهبط السمتيات ، وهي ساحة كبيرة فيها مصابيح في الأرض وأقراص فسفورية حمراء لتساعد هبوط الطائرات الهليكوبتر عليها .

**

فجأة خرج ضابط الاستخبارات الصموت وبمعيته ثلاثة من الحرس الخاص كأنهم بمشيتهم يعزفون جنازاً . وهنالك مجموعة من الحرس ينفخون بشيء من العنفوان في الأبواق إيقاع نفير . توقف الضابط بطريقة مصطنعة بعد أن شطر الفوج شطرين عند نقطة قريبة من خندقه ، ثم أخرج من جيبه ورقة ، وقرأ علينا أسماءنا للالتحاق بدائرة الاستخبارات الواقعة في الخطوط الخلفية .

كنا تسعة جنود ونقيباً مفتول العضلات له جسم رياضي ، من الواضح أنه سيكون قائد المهمة .

توقفنا خارج الفوج وشكلنا فصيلاً خاصاً ، ثم اصطففنا

أول الأمـر عند أكيـاس الرمل المقـابلة للخنادق ، بينمـا دخل النقيب الذي رشح ليكون آمر[٣] فصيلنا إلى الخيمة مع ضابط الاستخبـارات ، ليتـداولا في أمـور المهـمـة ، بعـد ذلـك خـرج الضـابط وحيـداً ليأمرنا أن نهرول بسرعة نحو مهبط سمتيات ، يقع على مسافة مئتي متر من آمرية المعسكر[٤] . وكان علينا أن ندخل ، ونحن نهرول ، بين عنابر التموين ، حيث تجمع عشرات من الجنود الذين يحـملون البنادق ويرتدون الخـوذ الحـربيـة وهم يدخنون ، وهنالـك بضـعـة جنود آخـرين كـانوا ينقلون مظاريف قنابل المدفعية والصواريخ إلى الجهة المقابلة . وصيحات الحرس تعلو كلما مرت بهم سيارة أحد القادة وهي في الغالب سيارة جيب ، وفيها ضابط كبير برتبه الحمراء وبيريته الكاكية يتفقد القطعات[٥] وهو يدخن . وكلما تقدمنا كنا نسمع بشكل أقوى خـفق ريش مـروحـة الطائرة الـهليكوبتـر كـأنها طبل تدمـدم في الفضاء ، ومصابيحها الأمامية كانت تتوهج وتخبو بالتناوب .

(٣) آمر : قائد الكتيبة .

(٤) آمرية : مقر القيادة العسكرية والأركان .

(٥) القطعات العسكرية : الوحدات العسكرية .

-٣-

كان من المفترض أن يصنع الفجر ، والغيوم المهدبة ، والملابس الكاكية ، والجزمات المطاطية ، والقلنسوات الصوفية ، وشواجير[٦] الرصاص فجراً آخر لهؤلاء الشبان اليافعين ، غير أن الأمر كان مختلفاً هنا في جبهة الحرب ، حيث تم تحميلنا في الطائرة الهليكوبتر بسرعة كبيرة ، إذ صعد النقيب أولاً ثم المخابر ، ثم الإسناد ، ثم صعدنا -الجنود- وراءهم ، وبعد لحظات ، حلقت الطائرة ، صعدت شاقولياً ، ثم مالت بريشها إلى الشمال لتعبر الخطوط الخلفية ، وشاهدنا من الأعلى رايات المدفعية ، ومخازن التموين ، وآلات الرصد . ثم انعطفت بقوة وبشكل تدريجي في عمق الصحراء .

**

هذه هي المرة الأولى التي أتعرف فيها على الصحراء من الأعلى ، كنت أنظر من نافذة طائرة الهليكوبتر وهي تحلق نحو العمق مفارقة خطوط الإمداد ، وأسيجة المعسكرات الشائكة ،

---

(٦) شواجير الرصاص : أمشاط الرصاص .

وتندفع أعلى وأعلى حتى تستبين الرمال الذهبية التي تتوهج مع أول خيط للشمس، تلك الخيوط المنتشرة على مسافة لا تُقاس، والتي جعلتني منتشياً كما لو أن الرمال الذهبية تزنر الأرض بكاملها، حتى زرقة السماء التي تعارض وتناقض اللون الذهبي للرمل، كانت تصنع من الغيوم أهلة تكاد أن تكون مخفية، والنجمة القطبية متوهجة بشكل خفيف، وكنت أدرك أن هذه النجوم التي تخبو مع وهج الصباح، كانت قد عرفتها شعوب الصحراء من الساميين منذ آلاف السنين، وهي التي دلتهم في أكثر الليالي حلكة على الاتجاه الصحيح، وهذا القِدَمُ هو الذي جعلني ذلك اليوم منتشياً..

لقد شعرت بالتماس مع هذا الرمل، وكأني أذوب في نوع من السرِّيَّة المطلقة، لقد شعرت وأنا في الأعلى بلحظة غياب مكشوفة مع الصحراء، وأحسستُ بأصابعي تستدفئ بهذا الوهج القادم من الرمل أولاً، ومن الشمس ثانياً، ومن المدار ثالثاً، وكأن الصقور التي يخشاها الطيارون تفر من خاصرة الرمال لتوقظ في التجرد المديد أنداء الأقاصي، هنا السماء شاسعة حيث لا يوجد ماء، ولا صخب، ولا مدن تحت بحار السحب، إنه برد الفضاء العظيم والمنبسط مثل الصحراء، وهذا الستار الخرافي لقداسة المحاريب، والسر الغامض لارتعاشات البدايات المبكرة.

كنت أنظر، من الأعلى، كثبان الرمال وحيدة، مترملة، متمتعة بالفقدان، وهي تنساب في توحشها المدهش لتتماهى

بهـدوء كـامل مع كل مـا يتـدفق من جـهـة الشـمـال ، مـتـحـدة بالتيه ، ومعزولة عن الخليقة برمتها . . .

كانت الطائرة تحلق ، وأنا أبصر ألسنة اللهب القصيرة وهي ترتفع من الحطب المشتعل بين الكوانين ، أنظر البدو مثل النمل بين التـلال لا يقـتـربون من الجـهـة الأخـرى للصـحـراء لأنهـا محاذية للمدن .

-٤-

منذ أعوام طويلة كنت التقيت بالبدو كثيراً ، من المرصنة في الشمال حتى بادية السماوة في الجنوب . . .وكان عدم اكتراثهم الساحر هو الذي أبعدني عنهم .

لماذا أفك شفرات أرستقراطييّ الصحراء هؤلاء؟

هذا الشعب الكسول الذي ينام بين إبر الشيح والقيصوم الذي لا ينبت سواه في الرمال ، كان فزعهم- ولا أوضح منه- يعيد الأمور علينا مقلوبة ، دون ابتسام يقرءون ويفكون رموز العالم الذي يحيط بهم ثم يهبطون ليلاً في الوديان ، يهبطون مثل آلهة قديمة بحركاتهم الرشيقة والبطولية معاً ويتلاشون في الظلام .

أما أنا ، فلم تكن الصحراء نسبة لي سوى هذه الأفعى الصديقة التي تفرُّ ، والطيور السائحة التي تتوهج في الفضاء ، والإبل العالية التي تحيي وهي تختال بسنامها وجه الشيخ الذي سيصبح في المساء ناسكاً ، والماعز التي أربكتها أصوات جنازير الدبابات ، وأردية النساء المشتهيات بلون الثرى ، وأسلحة الجنود الذاهبين إلى لقاء موت أكيد .

**

كانت طائرة الهليكوبتر قد انحدرت شيئاً فشيئاً لتصل مدينة السماوة حيث يقع مقر استخبارات الجنوب، وفي المنحدر كنت أرقب من النافذة السميكة للطائرة نهر الفرات وهو ينحدر بلونه الأمغر نحو البحر، وهنالك آلاف القطعات العسكرية التي تعبر الجسور، ومن بعيد . . .وقبل أن تحط الطائرة بنا، كنت أشعر بصلوات النساء عبر النهر تحيي السنابل التي أحنتها غارات العصافير، ومن بعيد كانت بقايا خيام البدو وعنابرهم فارغة وبيضاء مثل عيون الضرير . وفي المدى الممتد كنت أرى أشهر الآثار القديمة منذ عهد الساميين وقد غرقت في الرمال حتى النصف، وعند كل درب سفته الرمال هنالك بضعة جنود سيضلون طريقهم ولا يعودون، هناك حيث ستحرق نساؤهم، عند أعمدة تيجان الحضارات القديمة المتفحمة، ملابسَهم وصورهم لعلهم يعودون .

منذ آلاف السنين وهذه الشعائر لم تكنس من التاريخ جيداً، كما لو كانت هذه الصحراء هي البشرى الأبدية لمهبط الوحي، والتي طردت إبليس وكتائبه الشيطانية ذات البشرة الغبراء، أما أنا وفي الساعة التي يبرز فيها الفجر فأسمع نفير الأبواق الحربية المصنوعة من النحاس، وأرى النجوم البيض وهي تعلن نهاية الليل، بينما يضيء حطب الخيام يدي التي أضمها على هذا الغسق البارد والجاف .

-٥-

هبطت الطائرة بنا في مهبط مُعبَّد للسمتيات ، حطت بهدوء على الأرض ، وما زالت مراوحها تضرب بصوت مدو مثل طبل ، ثم نزلنا نحن بالدور مهرولين بعد أن نحني رؤوسنا لئلا تصيبنا ريشها التي تدور مثل سكاكين ، وكان الهواء يندفع بين أقدامنا كأنه يحاول أن يقلبنا ، وقد وقف النقيب عند الباب وكأنه يعدُّنا بيده ، وقد هرول خلفنا ، لنقف عند ساحة معبدة فارغة ، ومن خلفنا كانت هنالك :

عدة ثكنات للجنود ، كثبان رملية ، مبانٍ عسكرية ، وأسلاك شائكة ، وكانت سيارات الجيش تعبر الهضاب العالية فتثير زوبعة من الغبار ، وعند المعسكر المشيد بالطين والطابوق كانت هنالك أرتال من المدرعات التي وقفت وقد طغت عليها رائحة النباتات ، وعند حافة الساحة جلس جندي لينظف سلاحه ، وأمامه الرمل والتراب يأكلان ما كان يوماً إمبراطورية إسلامية . وكان برد الصحراء فوق بلاط المعسكر ، قادماً من الأعماق ، حيث يجلد الأرض ويزيد صلابة هذه الهضاب الكلسية التي تحيط بالمعسكر ، كما أنه يضغط بقوة على الجدران .

**

أمرنا الضابط أن نذهب إلى ثكنة الجنود لمدة ساعة ، بينما ذهب هو بصحبة ضابط آخر جاء من المعسكر لاستقباله ومرافقته إلى دائرة الاستخبارات ، فتفرقنا عند السياج الداخلي للمعسكر ، وقد كان مؤلفاً من عدة صفوف من البنايات الصغيرة المطلية بالجص ، وخلف المعسكر حدود الصحراء بهضابها الرملية المتحركة ، ومن الجانب الآخر كانت هنالك ثكنة أخرى محاذية للطريق وفيها بضعة دكاكين تبيع أقراص الخبز والشاي ، وعلى مقربة منها تنطرح دانات صدئة وقنابل وقذائف مدفعية ، وبنادق معطوبة من مختلف العيارات ، وعلى مسافة أبعد عند روافد إطلاق الصواريخ ثمة جنود نيام ، وصناديق ، ومساند للمشاة ، وشاحنات محملة بالأكياس ، وصناديق للعتاد .

وفي الشارع الداخلي المرصوف بالإسفلت يمر بعض الضباط القادة بسيارات الجيب ، وإلى اليمين يظهرُ شارع معبد حديثاً ، سُدَّ بمتراس تطل من كواه مدافع رشاشة يجلس قربها عرفاء يدخنون ، وفي الممر بضع نقالات مدماة ، وأينما وجهت نظرك ترى التأهب للحرب والاستنفار واضحاً ، أما من الجهة الأخرى ، أي في الصحراء ، فهنالك قافلة جمال تسير غير آبهة بهذا التاريخ الذي يتكون في المعسكر ، فهؤلاء الذين يسيرون ببطء مع خرافهم وماعزهم وجمالهم لا يهمهم من التاريخ سوى الشمس التي تتوهج في شرق الصحراء المنبسطة ، والظلال التي تخيم بسببها فوق الأرض ، والرمال التي تعد

مقياساً حقيقياً للزمن ، وتعكس بصمت مقدار الظل والضياء .
أما الخيام فهي تنأى مثل حوامات تائهة عن مراكز الحروب والإمبراطوريات ، وتقع بالتقابل والتناقض التام مع تاريخ آخر عند جنود الثكنة ، الجنود الذين كانوا يتأهبون للحرب وللهجوم المباغت من قبل طائرات الحلفاء ، وكان بعضهم من الزراية وكأنه يجرجر أقدامه نحو المقبرة .

-٦-

لقد عرفنا في الظهيرة قصة مهمتنا كاملة ، ولكن ليس قطٌّ من الضباط ، ولكنْ من تهامس الجنود في الثكنات أو في المطعم ، وهي الآتية :

قبل خمسة أيام ذهب ثلاثة من ألمع ضباط الاستخبارات للاستطلاع عند تل أحماد من الجهة الغربية الشرقية من العراق ، حيث من المحتمل أن تدور معارك ضارية مع قوات التحالف هناك ، وكانوا يحملون كمية كبيرة من المال ، ومعهم مجموعة صغيرة من الحرس ، وقد أوقع بهم البدو من بني جدلة بكمين ، وتم قتلهم وسلبهم أسلحتهم وأموالهم .

يقال إن الأموال التي معهم هي هدية من الجيش لبني جابر أعمام بني جدلة وكلاهما من بطون آل مضر ، وبنو جابر معروفون بموالاتهم الدائمة للدولة ، وتعتمد الاستخبارات العسكرية عليهم في رصد عمليات التسلل أو جمع المعلومات المهمة اعتماداً كاملاً ، بل كان بعضهم يدخل ويخرج من حدود الدول المجاورة مع إبله مثل أي بدوي آخر ، ولكن مهمته الحقيقية هي جلب المعلومات الأساسية من هذه الدول المجاورة .

غير أن بني جدلة كانوا يعيشون بطريقة مختلفة ، فهم على العكس معروفون في كل المنطقة بأنهم أكثر القبائل البدوية كلها تمرداً ، وهم الأكثر عنفاً سواء مع القبائل الأخرى أو مع القوات الرسمية ، كما أنهم لم يكونوا قط على وفاق مع أعمامهم من بني جابر ، ولأسباب غير معلومة بطبيعة الأمر ، فلا أحد يمكنه أن يتخيل أن هذا التمرد هو للتمرد ذاته ، وكان رأي الاستخبارات ، وهو رأيهم على الدوام ، أنهم ربما يعملون لصالح جهات أخرى ، وكان تساؤلهم الأول : هل استطاع الأميركان تجنيدهم عن طريق وسطاء من الدول الحليفة لأميركا؟

من جهة أخرى لم تكن عمليتنا هي الأولى التي أرادتها الاستخبارات العسكرية ضد بني جدلة ، فبعد مقتل الضباط العراقيين الثلاثة نفذت الهليكوبترات العراقية مباشرة عشرات الطلعات على المنطقة ، ولكن من دون جدوى ، فبنو جدلة قد اختفوا بين التلال الرملية مثل إبرة في القش ، وإن ضربت الهليكوبترات الحربية بعض التجمعات البدوية في الصحراء ظناً منهم أنهم من بني جدلة ، إلا أنه اتضح فيما بعد أن هذه التجمعات كانت لقبائل أخرى ، بل إن الطائرات أخطأت هدفها وقتلت عشرين رجلاً من بني جابر ، كانوا هم أيضاً يبحثون بين تلال أحماد عن بني جدلة ، لأسرهم وتسليمهم للحكومة ، أو لقتلهم .

وهكذا وصل عدد القتلى من البدو في الأسبوع الأول إلى

أكثر من ستين رجلاً ، لم يكن منهم غير اثنين من بني جدلة ، ولم يكونا مطلوبين مباشرة للقوات العسكرية ، إنما كان المطلوب الأول هو جساس بن مخيمر ، وهو شاب في العشرين من عمره ، متزوج من كمرة من آل طعمة ، يقال إنه هو الذي ذبح الضباط الثلاثة وسلبهم مالهم وأسلحتهم ، يعاونه أربعة من أبناء عمومته ، غالب بن عبود بني جدلة ، وجويد بن شمران بني جدلة ، وغريب حويط بني جدلة ، ومناحي حواس بني جدلة .

-٧-

بعد الظهر توقفنا رتلاً أمام دائرة الاستخبارات ، وكان الرمل من وراء المعسكر يتوهج تحت أشعة الشمس ، خرج ضابط طويل من المبنى بمعطفه الصوفي ، وبمعيته أحد رجال البدو من بني جابر ، اسمه منور بني جابر ، سار إلى جانب الضابط مباشرة ، ثم خرج ضابط آخر بلا رتب عسكرية يرتدي معطفاً طويلاً ونظارة سوداء ، وتقدم نحو خارطة مجسمة مصنوعة من الرمل ، وقد بنيت من خلالها بشكل تقريبي تضاريس المنطقة التي كان علينا أن ننفذ عمليتنا فيها .

ذهبنا جميعاً وتوقفنا بشكل دائري أمام المجسم وبمقدمتنا النقيب رعد وهو آمر فصيلنا ، أما من الجهة المقابلة فكان هنالك أربعة ضباط من الاستخبارات ، أحدهم كان يتفرج فقط ، ومن الواضح أنه أعلاهم رتبة–على الرغم من أنه خلع رتبته العسكرية–وهنالك ضابط آخر أسمر ، بعينين لوزيتين وملامح صارمة ، كان يرتدي معطفاً عسكرياً طويلاً ، ويحمل بيده عصاً رفيعة وطويلة ويؤشر بها على التختة الرملية ، وقد وقف وراءه مساعدان ، أحدهما كان يضع نظارة طبية ، والآخر أسمر صغير

الحجم وكان من الواضح أن لديه خبرة أكبر من الجميع بحياة البدو وطبائعهم ، وكان يعرف جيداً أسماء القبائل التي تقطن منطقة «تل أحماد» ، ويقف إلى جانبه البدوي من بني جابر .

بعد برهة صمت ، قال الضابط الكبير :

«مهمتكم هي أسر مجموعة من البدو من بني جدلة ، الشخص الأول في المجموعة هو جساس بن مخيمر بني جدلة ، وهنالك أربعة من معاونيه : غالب بن عبود ، جويد بن شمران ، غريب بن حويط ، مناحي بن حواس ، هؤلاء أهداف رئيسية للأسر ، أو للقتل . الأسر أفضل بطبيعة الحال ، كي نفيد من المعلومات التي لديهم ، ومعرفة الجهة التي تقف وراءهم .

الهدف الثاني ، هو قتل أي شخص يتأكد لديكم أنه من بني جدلة ، أي أنهم كلهم أهداف هنا بسبب تمردهم وتعويقهم لعمل الدولة .

الشيء الثالث ، يجب أن تعرفوا أن هذه الأهداف خطرة جداً ؛ إذ قامت بعمليات عديدة ضد قطعات الجيش ، آخرها قتل ثلاثة ضباط من أهم ضباط الاستخبارات ، لذا ينبغي توخي الحيطة والحذر» .

ثم أشار بيده إلى البدوي الواقف إلى جانبه ، وقال :

«منور من بني جابر ، صديق ، ويجب اعتبار بني جابر كلهم أصدقاء ، أي يمكن الاختباء عندهم ، أو الإفادة منهم بالمعلومات ، أو خذوا منهم كل ما يمكنكم الإفادة منه ، وعليكم الاتصال بهم في حالة وقوع مكروه ، وكنتم على مقربة منهم» .

هز منور وجهه بعلامة الإيجاب .

كان وجه منور بلا انفعال تقريباً ، إنه وجه شامخ لبدوي ، سحنته بلون الأرض ، لحية قصيرة على الحنك سوداء فاحمة جداً ، أما فمه فقد كان صغيراً ومرسوماً بعناية فائقة ، وكانت عيناه برموشهما الثقيلة ترسل نظرات واثقة ، هادئة ومتعالية مخفية إلى حد ما بمكر وذكاء حادين . طوال الساعة التي أمضيناها أمام التختة الرملية لم يتحدث مطلقاً ، ولكن كان وجهه الذي لا يقول شيئاً يهيمن على كل الحاضرين ، ونظراته العميقة تتابعها تحت ضوء النهار الغارب كل العيون .

-٨-

بعد حديث الضابط الكبير وقف ضابط آخر ، ذلك الذي كان يحمل معه عصا رفيعة وطويلة يؤشر بها على التختة الرملية ، وشرح لنا العملية البسيطة التي سنذهب لتنفيذها ، وإن كان يسهب هو في التفاصيل ، ويحدثنا عنها كما لو كان يحفظ درسه جيداً ، وهي الآتي :

- إن العدو (يقصد الخمسة من بني جدلة) يحتمون بتلال أحماد التي لا يقترب منها البدو بسبب الرطوبة التي فيها . (معروف عن البدو بأنهم لا يقتربون من الأماكن الرطبة ، بسبب وجود الحشرات أو الزواحف الخطرة فيها) ، كما أن هذه التلال تمكنهم من الاختباء السريع ، لدرجة أن يصعب العثور عليهم بينها .

ثم بعد ذلك شرح لنا بالتفاصيل مراحل تنفيذ العملية :

- ستكون العملية ليلاً لكي لا يعرف العدو شيئاً عنها .

توقف قليلاً ليرفع عصاه عن التختة الرملية ، ثم قال :

- المعلومات الاستخبارية تقول إن الهدف موجود الآن في «تل أحماد» في مبنى طابوقي مهجور .

توقف قليلاً أيضاً ليرى ردة الفعل على وجوهنا ، ثم استمر مستأنفاً الكلام :

- ستحملكم طائرة هليكوبتر عسكرية ، وستحط بكم في عمق الصحراء ، على مسافة ثلاثة كيلومترات من مكان العدو ، أي أنكم ستهبطون على مقربة من الهدف ، وفي الصباح ستهجمون بقوة لاحتلال هذا المكان وأسر العدو أو قتله .

ثم شرح لنا خطة الانسحاب ، ذلك بعد تنفيذ هذه العملية سريعاً ، سيقوم المخابر بإبلاغ القاعدة بذلك ، أي أنه سيعلمهم بالموقف ، ومن ثم سيرسلون لنا طائرة هليكوبتر إلى مكاننا ذاته لتقلنا إلى القاعدة ، وفي هذه الحالة إما مع الأسرى أو من دونهم ، أي في حالة قتلهم ، فهم لا يريدون الجثث . أما إذا استجدت أحداث أخرى ، فقال الضابط إن التصرف يتم على ضوء المعطيات الممنوحة على الأرض ، أي إنهم يمنحون الضابط الحق في اتخاذ ما يراه ملائماً إذا طرأ أيٌّ تغيير على الخطة .

**

بعد غروب الشمس مباشرة كنا في بهو المعسكر عندما دخل علينا أحد جنود الانضباط ، ببيرية حمراء ، وقياطين[٧]

(٧) قياطين : رباطات الجزمة ، والحبل الصغير الذي يحمل الصافرة ، واللون الأبيض للانضباط العسكري ، والأحمر للمغاوير ، والأسود للمشاة .

بيض ، ونطاق أبيض ، وكـان يضع المسـدس على جـانبـه الأيمن وفي يده عصا ، دخل البهو ووضع الصافرة في فمه وأطلق صفرة قصيرة ، وقال :

- فصيل غارة الصحراء مطلوبون عند ضابط الأرزاق .

-٩-

توقفنا لحظات ، وبعدها هرولنا بسرعة نحو حجرة خشبية كـائنة وراء المعسكر ، وقد اضطررنا إلى أن نمر أمام بناية المستودعات المغطاة بشبكات التمويه والطين ، اثنين ، اثنين ، يتقدمنا النقيب رعد بجسمه الرياضي وعضلاته المفتولة ، وبوجهه الأسمر العابس قليلاً ، وقد كان حاسر الرأس ، وبلا سلاح ، بينما كنا نهرول بخوذنا الحربية وبساطيرنا وبنادقنا بأيدينا ، وكأننا في وضع هجوم . عند المستودعات استبدل بالخوذة الحربية كيس خاكي من الصوف مفتوح من عند العينين يلبس بالرأس مباشرة وبه فتحة للفم والأنف أيضاً ، وزودونا كذلك بقفازين صوفيين ، وبمسدسات للاشتباك القريب ، وبذخيرة خاصة من الرصاص الذي ينفجر ما إن يستقر في الجسد لإحداث أكبر ضرر ممكن في الأعداء . ثم هرولنا نحو الطائرة الهليكوبتر الجاثمة في المهبط القريب .

كانت سلسلة المصابيح في المعسكر خافتة ومختلطة في الضياء ، والسماء بعيدة ، وهنالك ضجيج خفيف في الثكنات ينبئ بحياة نابضة في هذا المكان .

**

توقفنا عند المهبط بينما أخذت مراوح الطائرة تدور بسرعة كبيرة ، فصعد النقيب رعد أولاً ، ثم المخابر ثانياً ، ثم صعد منور البدوي دليلنا في الصحراء من دون سلاح وقد حزم دشداشته البيضاء على بطنه النحيف ، ولف يشماغه المبقع على وجهه ، ثم صعد الإسناد وراءه ، وهم ثلاثة من أبرع الجنود الذين شاركوا في معارك شرق البصرة في حرب العراق مع إيران ، ثم صعدنا نحن خلف الجميع .

كان الضوء داخل الطائرة أصفر شاحباً ، وقد ظهر الطيار من باب موارب في القمرة وهو يعطي إشارة الإقلاع ، وقد جلست أنا بسرعة على الجانب الشمالي قرب النافذة السميكة وربطت الحزام . بينما جلس النقيب رعد في المقدمة وجلس إلى جانبه محمد المخابر بعد أن خلع جهاز المخابرة THOMSON 133 من على كتفيه ، ثم أسند ظهره إلى النافذة وربط الحزام بسرعة كبيرة ، ثم جلس منور بدشداشته ويشماغه الملفوف على وجهه عند باب الطائرة مباشرة ، ولم يعرف كيف يربط الحزام فهرع أحد قباطنة الطائرة وربط له الحزام ، وأخذ يتمشى في الطائرة رواحاً ومجيئاً ، أما الرفاق الآخرون فقد تفرقوا جالسين على المقاعد المتقابلة ، وقد شدَّ كلٌ واحد منهم حزامه .

**

دقائق وحلقت الطائرة إلى أعلى ، فأصبحت أضواؤها التي كانت تومض على المهبط بعيدة عن الأرض . لقد صعدت الطائرة فجأة ، وبسرعة كبيرة في قلب الليل الحالك ، حلقت

أعلى وأعلى وهي تستدير شمالاً في قلب السواد الأملس ، لم تمر سوى لحظات قليلة حتى اختفت مصابيح المعسكر تماماً عن أنظارنا . استدارت الطائرة على نفسها وهي تغور في الفضاء مثل حشرةٍ تقاوم الرياح العاتية ، ثم اندفعت وكأنها سقطت في الفراغ بعد أن رفعت ذنبها إلى الأعلى وأنزلت مقدمتها إلى أسفل ، وكأنها شقت الليل المعتم بمبضع حاد وانسربت بقوة إلى أمام .

-١٠-

أخذت أنظر بهدوء من نوافذ الهليكوبتر السميكة إلى تلال الرمال المتحركة كأنها أمواج بحر سوداء تغطيها طبقة فضية واسعة ، كنت أرى هنا وهناك نتوءات جبلية حالكة ، وفجوات تتغلغل عميقاً في السفوح الحجرية الصلبة ، كانت صحراء السماوة التي أضلت إبراهيم الخليل وعائلته وهو في طريقه إلى فلسطين تمتد خلفنا ، وكنت أميز على نحو مشوش بعض الأهداب الرملية الصفر والمذهبة التي ترسم الحدود الفاصلة بين أرض نبوخذ نصر وأرض كنعان . كنت أرى عتمة الصحراء عند الطرف القصي لأحد النتوءات ، والمصادفة وحدها هي التي أضاءت بلا ريب النور على أطلال مدن سومرية ابتلعتها الرمال ، هذا النور الذي يخاله المرء من بعيد فناراً ، هو فنار يدل على وحدته وهجرانه ، إنه فنار لكنه لا يرشد ، ولا يضيء إلا عيوننا ، ويدعونا لإلقاء نظرة رثاء على أطلال المدن السومريَّة التي ابتلعتها الرمال .

**

من هذا العلو الشاهق وكأننا نحلق فوق الهاويات ، مع كل الأحداث المهيبة لليل ، والقمر ، والفضاء ، والنجوم ، والصحراء ، وهذا الطيران البعيد الذي دام ساعتين ، ومشهد الرمال الذي أدهشني من الأعلى ، وهذه الهاويات السود التي كانت بالقدر ذاته من العمق ، والصوت ، والمرقشة بكرات صخرية ، كبيرة ، بيضاء ، وحية ، كنت أسمع الصوت الذي رجعت صداه رمال السماوة وبابل وآشور في كل زمان ومكان ، كنت أشعر بأن الأرض يغمرها ضوء شاحب ، ضوء خفيف كأنه قادم من تبخر بحر في السماء ، وكنت أرى هذا الصمت الإلهي العظيم ، هذا الصمت الأخرس في الليل ، وكأن الصحراء هي الصرخة الأخيرة للرب .

فيا لها من أشياء تلك التي سمح لي الله برؤيتها على أرضه! إنها بوابة سامية أدخل منها في اليوم التالي إلى الصحراء ، حتى كأن الليل يختلط بالسماء ، وهذا الضوء الشاحب الذي يغمر الخليقة قادم من أقدام الإله الذي أنار النجوم بضوء ثابت يبرق مثل ألماس على بساط أسود ناعم .

**

هبطت الطائرة دون أن تحط على الأرض وكان علينا أن نقفز منها إلى الرمال بسرعة ، واحداً بعد آخر ، ولا شيء غير صوت مراوحها التي تضرب مثل دف ، وصوت الضابط الذي يصرخ علينا بسرعة ، بسرعة ، وأصوات ارتطامنا بالرمل ، نقفز ثم ندوس الرمال التي تصل أحيانا إلى الركب . في تلك

اللحظة قفزت ، لم أكن أعرف مقدار الارتفاع الذي أهوي منه . هبطت قدماي على الرمل بينما مال جسدي إلى الوراء ، لا أعرف ما إذا كنتُ قد سقطتُ في هاوية ، أو انحدرت من على تلة رملية ، ولكنني شعرت بحبات الرمل قد وصلت إلى فمي ، وصارت تجز تحت أسناني ، وانتشرت بعض حبات الرمل في ملابسي وصارت تحتك بين ملابسي الداخلية وجسدي .

وسرعان ما استعدت توازني ، وكانت الطائرة أعلى رأسي ، وركضت غير أني اصطدمت بجندي آخر كان قد هبط من الطائرة لتوه ، وتكومت مرة أخرى في الرمل ، غير أني لم أترك سلاحي .

نهضت مرة أخرى وتعقبت مصدر الصوت ، وهرولت . كانت جزمتي المخصصة لحرب الصحراء قد أعانتني ، حيث كان بإمكاني ثنيها في جميع الاتجاهات ، وهرولت إلى الأمام . أحنيت رأسي وأخذت وضع الانبطاح ، ولم أكن أسمع غير أصواتنا ، وجلبتنا ، دون أن أسمع أي رصاص مقابل ، ثم سرعان ما حلقت الطائرة ، التي كانت قد أطفأت الأضواء ، إلى الأعلى ، مالت يساراً وارتفعت ، حتى أخذ صوتها يتلاشى شيئاً فشيئاً .

-١١-

صرخ النقيب وهو منبطح على الرمل :

علينا احتلال البناية التي أمامنا . .

إن هذه البناية ، من الناحية العملية ، وفي الواقع ، وحسب المعلومات الاستخبارية ، خالية تماماً ، وتبعد عن موضع الهدف بضعة كيلومترات ، وعلينا البقاء في هذا المكان حتى الصباح ، ولكن للاحتياط ، وتفادياً للكمائن علينا أن ندخل خلسة ونفتشه ومن ثم نبيت فيه .

أمر الضابطُ ثلاثةً منا بالالتفاف حول البناية ، وأمر اثنين آخرين بتحويطها من اليمين ، أما أنا فكان علي مع جنديين آخرين الالتفاف من الشمال ، وبدأنا نقترب من المكان بخطوات واحدة ، وبوضع يسمى بزحف الغوريلا ، أي القفز خطوة خطوة مع الإمساك بالبندقية وأرجحتها يميناً وشمالاً . ثم توقفنا على مبعدة مترين من المكان ، فأمر الضابط منور البدوي بالدخول إلى البناية .

طبعاً هذه الخطوة الأولى هي التي جعلتني أعرف أن الضابط لم يكن واثقاً ثقة كاملة بدليله ، على الرغم من أن

التعليمات التي كنا نتلقاها في ذلك الوقت هي ألاّ نثق بأي شخص غريب ، ولا سيما البدوي والذي لم تكن القطعات العسكرية تعتبره مخلصاً لها على الإطلاق .

دخل منور وأشر بيديه أنْ لا وجود لأحد ، فزحفنا مع ذلك بحيطة وحذر حتى دخلنا المكان ، وقد قام الضابط بتفتيشه من كل ناحية .

**

لقد شعرنا بالراحة ، ثم أخذ الضابط يوزع الواجبات والحراسات ، وأمر المخابر بتأمين الاتصال مع القاعدة .

- من فصيل غارة الصحراء إلى نقطة أمين كيف تسمعني؟ أجب .

- أسمعك جيداً . . . أجب .

- الموقع المعروف صالح . . الساعة صفر معلومة سيكون تنفيذ الواجب . .

- روجر .

**

كان الظلام دامساً ، والصحراء يشغلها نفر من الأعداء ، والطائرة الهليكوبتر التي قادتنا إلى هذا المكان قد غادرت ، وليس لنا سوى هذا المبنى الطابوقي المهدوم الذي سنختبئ به حتى الصباح ، ومع الفجر سوف ننصب الكمائن لبني جدلة في مكانين متقابلين ، الأول من الجهة الشرقية لتل احماد والآخر من الجهة الغربية للتل . شعرت بأن هنالك نوعاً من

الاصطناع ، اصطناع عداوة لغاية متجددة وملحة ، هي النزوع اللاواعي لإفناء الآخريـن . فـالحـرب مملوءة بـالأوهام والاستيهامات ، هنالك صناعة حقيقية ، نحن نقوم بدور الجنود المدججين بالأسلحة وهنالك سلابة بدو وتخوم ، كما لو كـانت الحرب عالماً تخيلياً مصطنعاً عبر الإفراط بالأدوات الغريبة .

-١٢-

في هذا الليل الذي نعانق فيه الرمال ، ستكون المدن التي فارقناها بعيدة ، الشوارع بعيدة ، الأسرار مغلقة ، وصقيع الليل يجعل الناس يعزفون عن الكلام ، والكلاب تعزف عن النباح ، ويجعل أبصار الجنود شاخصة في الظلام .

فكرت في نفسي : الأحلام بعيدة عني ذلك اليوم ، والحرب قريبة جداً ، وما من ماضٍ لي أفكر به الآن ، ففي الحرب لا معنى للماضي أبداً ، ذلك لأن الحاضر وحده الذي يهيمن على تيار الزمن ، فاللحظة القادمة مجهولة ، والماضي منسي ومتقهقر ، والحاضر هو الزمن الأكثر كثافة وواقعية في تيار الزمان .

**

كانت البناية خاوية ، متروكة مثل جزيرة ، ضائعة في الليل . وكان القمر الذي زاد من تقدمه في السماء يضيء على نحو أفضل هذا المشهد الصاخب والمتوحد في آن معاً ، وعندما ينسحب الضوء ، ضوء السماء الحارق ، لا يبقى سوى هذا الرمل المقفر ، حيث تومض نيران الخيام البعيدة ، ويتسرب البرد

في أجساد البشر المتمددين على الأرض .

**

كان علينا أن نظل بلا حراك مدة ساعات ، ولساعات علينا أن نظل جامدين ؛ على العيون أن تبقى مفتوحة على اتساعها ، ناظرة من بين الجدران شبه المهدمة إلى التلال الرملية التي يضيئها القمر . علينا ألاّ ننام نومةً كاملةً ، ونحن في هذه الصحراء التي أشاحت عنها الآلهة وتركتها البشر . وبعد أن استيقظنا في الصباح شعرت برعدة خفيفة في جسدي ، ارتعدت من فراغ الصحراء المرعب ، ومن هذه الطرقات الموحشة المقطوعة .

**

كانت البناية الفارغة فيما مضى بناية لبطارية مدفعية ، وكانت ثمة آثار قوافل الجمال التي تمر عليها منذ زمن بعيد ، وحين أطللت برأسي لأرى المكان شعرت بأننا في بطن وادٍ رملي ، حيث جثث الجمال نصف المتعفنة مطروحة على الرمال ، وحولها بقعة الزيت الذائب ، وكنا نسمع في الصباح صريف حيوان الضب .

لحظات ، ثم توقفنا أمام النقيب بملابسنا كاملة ، وبنادقنا بأيدينا ، وكان هواء الصباح منعشاً ، والتلال المتحركة ثابتة وساكنة ، فقد بدأ الضابط بشرح المهمة بالآتي :

– عن طريق كمين تمكن العدو من ذبح أهم ضباط الاستخبارات ، وما زال يتجول طليقاً في الصحراء . وقد صدر

الحكم عليه ، ويقتضي هذا الحكم إما قتله أو أسره . وها هو الفصيل القتالي جاء إلى الصحراء بهذه المهمة التي ينتظر نتائجها قادة الجيش في القاعدة التي كنا فيها قبل ساعات .

ثم بدأ بتقسيم الواجبات حسب الخطة المعدة في الاستخبارات :

- محمود المعالج ، وسمعان الرامي ومحمد سعدون المخابر ستكونون قوة إسناد ، فالأول طبابة ، والثاني رشاشة بي كي سي متوسطة ، والثالث مخابر . ثم أشار لي ومعي مجيد ورائد وقال لنا : أنتم قوة مناورة ، ستشاغلون العدو وتمكنون القوة المهاجمة وهم جواد وجليل وعباس من الانقضاض على العدو وتنفيذ الواجب ، بينما يبقى المخابر محمد سعدون في المكان .

لماذا يبقى المخابر في المكان بينما ينطلق الرتل نحو تنفيذ مهمة قتالية؟

في الواقع هنالك تفسيران ، أو سببان ، الأول هو ما يطلق عليه ضباط الأركان بعملية «مسك الأرض» ، وهذا هو اختلافهم عن البدو الذين لا يعرفون عملية مسك الأرض ، حيث يتناثرون مثل القش في الرمال ، والجيش كان يستخف بالبدو لأنهم يقاتلون في مواقع متغيرة ومتنقلة بلا نظرية حربية ، وهكذا كانوا يعدون البدو بلا معرفة ولا حساب ولا معدات ولا أدوات ولا تفكير ولا أي شيء ، يعدونهم عدواً جاهلاً وقاصراً . السبب الثاني هو أن المخابر نسبة للنقيب شخص مهم جداً ، ويجب حمايته وذلك بإبقائه بعيداً عن

الهجوم ، فهو لا يحتاجه في ساحة القتال كي يطلب منه أن يتصل بالقاعدة لتغطية الفصيل بطائرات إسناد ، كما يحدث دوماً في المعارك الكبيرة ، كما أننا لسنا بحاجة لقوات إضافية لأسر أو قتل خمسة من البدو فقط ، ولكن من الممكن أن تأتي رصاصة طائشة في المعركة الصغيرة التي علينا تنفيذها وتطيح بالمخابر . وبالتالي لا يمكن لأحد تعويضه . فمن سيتصل بالقاعدة حينذاك ليقول لهم إن المعركة قد انتهت؟ وعلى طائرة الهليكوبتر أن تأتي لتحملنا وتعيدنا؟

ما شعرته على الدوام وفي جميع الحروب ، أن الضابط يفكر على الدوام بقضية مسك الأرض ، وتحت هذه اليافطة يصبح أمر الهجوم نافذاً . ومعناها أنه يجب أن يكون لنا مكان معلوم نتجمع فيه ، وأن يكون هذا المكان محمياً جيداً ؛ لذا سيبقى المخابر في هذا المكان ، في هذه البناية شبه المهدومة للاتصال بالقاعدة ، ولكن من غير المستحسن أن يبقى وحيداً ، وقبل أن ننطلق بلحظات ، فكر الضابط قليلاً ، ثم التفت للفصيل ، وبإشارة من يده ، أمر أحد قوة المناورة للبقاء مع المخابر ، وكان الأمر موجهاً إلى جندي اسمه رائد ، فأدى التحية وابتسم لبقائه مع المخابر في البناية شبه المهدومة .

-١٣-

حين تحركنا نحو الهدف شعرت بقشعريرة اجتاحت جسدي كله ، كنت أدركت بأنني تخطيت العتبة الأول نحو القتل . الحرب معناها أن تدمر خصمك ، وهي مختبر أيضا للاستعراض الفحولي وقدرات الرجال ووسائلهم . لا أدري لم خطرت في بالي تلك اللحظة وإن بشكل خاطف صورة من صور أفلام الحرب ، خطفت في ذهني كما لو كنت أسير وأمثل ، كما لو كنت مراقباً من قبل جمهور كبير ، شعرت لحظتها بأن الحرب هي الحقيقة وفن الحرب هو استعادة لذة القتل عبر الفن ، ومع أن القتل الحقيقي لا يتم على أنغام موسيقى فاغنر ، ولكن الفن يلطف فعل القتل ، وهو تدريب وتمرين مع ذلك عليه .

ما هي الحرب؟ كنت أسأل نفسي وأنا أرى كل هذه التحضيرات ، كما لو كانت في فيلم سينمائي . من تعلم مِنْ مَن؟ الفنّ من الحرب أم الحرب من الفنّ؟

الحرب واقع مصطنع ، لعبة متخيلة ننفذها عبر مجموعة من الأدوات الساحرة : بزات مرقطة ، وخرائط ، ورادارات ،

وخوذات حديدية ، وبساطير وآلاف من الأدوات التي تجيد إدامة التأثير المتعدد على الآخرين . الحرب هي فعل اصطناع ، هي محاولة لتقديم الموت بصورة اصطناعية ، غرضهما إعادة توليد وهمية للواقع وبعث الخيال واقعاً متوهماً ، هي جعل الخوف حالة واقعية عبر سيناريو معين ، جعله حالة واقعية بعد نقله من حدود الدائرة الاصطناعية والتمثيل إلى حد الوجود . هكذا هي الحرب ، لعبة من الفخاخ المنصوبة بسبب أشياء وهمية ، إنها تنفيذ غير مباشر لرغباتنا الحقيقية لغريزة الدم وشهوة القتل والتدمير ، إدامة المظهر الغريزي لعاطفة القتل والخراب .

**

انطلقنا إلى تنفيذ المهمة التي أطلق عليها ذلك الوقت «غارة الصحراء» .

أخذنا في البداية الجهة الشرقية من المبنى ، يتقدمنا منور البدوي ، بدشداشته ويشماغه الذي لفه على وجهه ، ثم أمرنا الضابط بإشارة من يده بالتوقف ، وحمل القمباص[٨] بيده ليتعرف على الشمال ، فأشار لنا للانحراف خمسين درجة ثم طلب منا التحرك على شكل رهطين ، واحد من اليمين والآخر من الشمال ، والإسناد من خلفنا .

---

(٨) القمباص : البوصلة .

في الواقع لم أكن أعلم شيئاً عن الصحراء ذلك الوقت ، ولا أعلم أي شيء عن البدو الذين علينا ملاحقتهم ، ولا أعرف من هم الضباط ، ضباطنا الذين ذبحوا مثل الخراف فوق هذه الرمال .

ولكني شعرت بشيء غريب يكتنفني تلك اللحظة ، لم تكن هذه المغامرة الجديدة تشبه أية مغامرة من قبل ، فها أنا هنا على هذه الأرض لأنفذ أمراً ، بقتل بعض البدو ، أصدره ضباطُ القاعدة . كان من الممكن أن يكون الأمر غير ما كان ، ولكني كنت أحس بإحساس مجهول يكتنفني ، كما اكتنفني وأنا أنظر إلى الصحراء من الأعلى بحضور مقدس لا أعرف ، ولا أعرف كيف أفسره وأتقبله .

كنت أسير إلى مكان مجهول ، ولأجل قتلِ بدويٍ مجهول ، بينما تخفق أطيار البوم الصغيرة بأجنحتها فوق التلال الذهبية ، في صمت وسكون .

-١٤-

كان هنالك شخص واحد إلى جانبي ، اسمه مجيد ، وهو مهندس مدني على ما أتذكر ، كان قد درس في ألمانيا ، كان مجيد قصيراً وأسمر ،له يدان سمينتان وقصيرتان ، لا يتكلم كثيراً ، ولكنه كان مطيعاً للواجبات ، له عينان ذكيتان لامعتان ، وهو حذر على الدوام ، وكنت أثق به جداً ، لأن مجيد كان قد خدم في الصحراء الغربية أربعة أعوام كما أعرف ، وشارك في معارك طاحنة في الحرب العراقية الإيرانية ، وهو حاصل على أنواط شجاعة عديدة ، وبيننا علاقة طيبة . فسألته بصوت واطئ :

- بعد أن نقضي على العدو ونعود غداً إلى القاعدة ، هل سنبقى طويلاً باعتقادك أم ننتقل مباشرة إلى معسكرنا في الخطوط الأمامية؟

-نقضي على البدو غداً . .أنت مجنون . .هؤلاء أساتذة في المناورة والتخريب . .

- شلون؟

- قلت لك هؤلاء الآن سعداء لأن إحنا نطاردهم . . .

والنقيب رعد شجاع ، ولكنه غير قادر على مناورة البدو . .

ثم زم شـفـتـيـه وقـال : بدو ومن بني جـدلة . وهز يده يائساً . .

في الواقع لم آخذ كلام مجيد على محمل الجد ، فبضعة بدو مخربين لا يمكن لهم أن يصلوا إلى فصيلنا المدرب جيداً ، والذي خاض معارك عديدة في جبهات الحرب ، وكان اختيار الاستخبارات العسكرية لنا صحيحاً ، فكل الفصيل تقريباً ممن كانوا قد خاضوا معارك طويلة ، وممن يحملون عدة أنواط شجاعة في الحرب العراقية الإيرانية .

**

في الطريق بدأت الرحلة القتالية كما لو كانت نزهة ، كما لو كانت تمريناً أو مناورة حربية كاذبة في الصحراء ، لم نكن خائفين أو قلقين أو مضطربين أو مترددين ، بل كنا واثقين من أن الهجوم الذي سننفذه اليوم لن تقف أمامه قوة من البدو غير مدربة ، كما أن المكان ذاته قد أثر فينا على ما أعتقد ، لقد كان الطقس رائقاً ، والصحراء الممتدة والمشمسة منحتنا نوعاً من الراحة اللانهائية ، وأثناء مسيرنا كنا نرى بضع قبرات تطير من مكان إلى مكان ، مما ينبئ أن هنالك نبعاً قريباً ، أو على الأقل مكاناً رطباً موجوداً في المنطقة ، فهنالك شجر الصبار نراه من مكان إلى مكان ، وبضع أشجار شيح وقيصوم نابتة في الرمل ، وكان الضابط الذي يتقدمنا يحذرنا بعدم الاقتراب من هذه الأشجار ، لئلا يكون هنالك حيوان مختبئ بها ، أو ثمة

حشرات أو زواحف قاتلة ، ولكن الطقس برمته كان مبهجاً نوعاً ما للجنود ، وهنالك نوع من الراحة لأننا أصبحنا بعيداً عن أمكنة الحرب التقليدية ، وعن المواضع ، وعن التحضيرات والاستعدادات ، وكنا نسير على شكل رتلين متناظرين مرتدين الأقنعة التي لا تظهر من وجوهنا سوى أعيننا وأنوفنا ، لكي نرعب العدو ، وهنالك ملابسنا المرقطة ، ومسيرنا الهادئ والواثق يتقدمنا الضابط ، وقد بدأ الحديث المازح بين الجنود على النحو التالي :

قال سمعان ، (وهو العريف الذي ينوب الضابط في الحركة) :

- مجيد أنت كنت في ألمانيا؟

قال مجيد بصوت خفيض ومتضايق تقريباً : نعم .

رد عليه سمعان وهو يتبختر بسلاحه ورماناته التي يعلقها على صدره وبطنه مثل هدايا : -عشت هناك سنوات عديدة ، صحيح؟

- صحيح . حوالي عشر سنوات .

كنت أسير إلى جانبه ، وأعرف أن الأمر لن يتوقف عند هذا الحد .

- أخبرني ، هل جربت أن تنام مع واحدة شقرا؟

- نعم؟

- أشقر . . قال وزم شفتيه ، عضو الشقراء أشقر ، ثم التفت لنا وقال :

- عضو الشقراء أشقر مو . . لو غير شي؟

ضحك مجيد وقال له : أحياناً لا . .مو أشقر .

قال سمعان مستنكراً :

- شلون . . أنت ما نمت ولا مع وحدة شقرا؟

- نمت مع شقراوات ، ولكن المشكلة هي أن أعضاءهن ليست دائماً شقر . .

- شلون؟

- أحياناً . . متأكسجنات . .

وضحك الفصيل . . فصاح الضابط . . إنهي إنهي . .

**

كان سمعان أشبه بصبي صغير عصبي المزاج ، وكان في بعض الأحيان يقوم بلعب دور الشخص الناضج ، فيسير أمامنا وهو يشد على خصره بضع رمانات ، وكان الجميع يعرف أنه أشهر رام رمانات في الفصيل ، لم يكن له سوى هم واحد ، هو أن يقترب من العدو بدرجة كافية ، ويرمي عليه الألعاب بطريقة سريعة وخاطفة ، هكذا كان يسمي الرمانات :

«لعباتي الصغيرات . .»

وحين يقول لعباتي الصغيرات يعني أنها تسليات الموت ، فكرة فنطازية عن الموت القادم ، وهذا الموت هو موت الآخرين وليس موتنا .

ما يدهشني بسمعان هو أنه أكثر واحد في الفصيل كان يتكلم عن الموت ، ولكنه لا يتكلم عن موتنا نحن ، إنما يتكلم

دائما عن موت الآخرين : موت أعداء ، لذلك لا تجده خائفاً أبداً ، فموت الآخرين يمنحه ثقة بالنفس حتى وإن لم تكن في محلها بالمطلق .

وما يميز سمعان أيضاً (كعريف للفصيل) أنه كان استحواذياً بالكامل ، كان يريد أن يسيطر على كل شيء ، ولأجل أن يحتفظ لنفسه بأكبر سلطة ممكنة كان يستأثر بأوامر الضابط ليطبقها بحذافيرها ، وحتى في هذا الزمن الصغير ، كان يريد التعود على الصحراء وكأنه مقيم دائم ، ربما كان في ما يفعله الكثير من الأوهام ، هذا صحيح ، ولكنها أوهام واقعية ؛ إذ قال لي مرة إنه يفعل هذا لأنه يعتقد أن الأوامر العسكرية هي أخطر من مجابهة العدو :

- ماذا لو كرهك الضابط . .قال لي مرة .

- . . صمت . . لم يكن لدي ما أقوله .

-سيتهمك شتى الاتهامات ، وربما بالتراجع من المعركة أو الجبن ، ومن ثم تعدم .

كان الأفضل نسبة له هو أن يطبق الأوامر بحذافيرها ، أن يقترب من الضباط لأقرب درجة ممكنة ، كي يتفادى شراً قادماً حتى لو كان في الأوهام ، فهذه الأوهام هي المسافة الواقعية التي تفصله عن الخطر ، وهذه المسافة هي التي تجعل من كل شيء ذا دلالة ، فالدلالة يستلها من خبراته من الحرب مع جيش نظامي ، ويعرف مدى خطورتها .

-١٥-

بعد مسيرة نصف ساعة باتجاه أهدافنا تغيرت الصحراء ، أخذنا نغوص في الرمل حتى العرقوب ، نصعد تلالاً رملية تتغير أماكنها كل ساعة ، رمال صفراء أشبه بالذهب المطحون ، وكانت الشمس ذات الأشعة الدافئة واللون الذهبي ترتفع في السماء شيئاً فشيئاً ، ومن بعيد يتمدد الضياء الأبيض ليكشف عن مناظر عظيمة ، مناظر اصطفاها الله منذ الأزل ، وكان مقدراً عليَّ رؤيتها للمرة الأولى في حياتي . . . أنا القادم الجديد إلى هذه الصحراء!

كنا نسير بين الرمال ، وأقدامنا تغوص عميقاً . غير أني كنت سعيداً ، لا حد لسعادتي ، ففيما مضى كنت أقول إن هذه الصحراء بلا موضوع ، هذا التماسك في مشهدها الرملي المشمس جامد ومعقد . .

يا لشكوكي المتأخرة!

كل شيء هنا فائق الجمال وطاهر مثل منجم تحت سماء مفتوحة ؛ هذه الجواهر الروحية يكفي أن تنحني وتلتقطها ؛ لا حاجة بك للعمل عليها على الإطلاق ، كل شيء فيها صلب

ومتقشف مثل غذاء الفقير، لا شيء يتعفن في هذا التجرد المطلق، يا للشهية التي تبزغ فجأة وأنا أبصر قيمة هذا الخلاص، يا للألوان التي تتمازج على هذه الخلفية المضيئة، والتي تدحر التفاهة الفنية لكل ما هو مصنوع؛ يا لشكوكي المتأخرة وأنا أبتعد عن كل وضعية متكلفة.

إنها أشبه بالسر الواقع في مكان ما تحت هذا الجزء من السماء الزرقاء، وقبل أن نصل إلى الهدف كنا دخلنا في أعماق وادٍ ضيق ومظلم، وفي ظل هذه الرابية التي تبدو وكأن صخورها العتيقة لا تزال متصدعة من اختلاجات الرياح، فوجئنا بأصوات غريبة، همسات وحركات مبعثرة تحت الرمال. فرفع الضابط يده إلى الأعلى وأمرنا بالتوقف، ثم أنزل يده، وصرخ بنا للهرب بالسرعة الممكنة والركض نحو المرتفع العالي.

فهرولنا إلى الأعلى وأخذنا ننظر إلى الأسفل، كان شيئاً غريباً حقاً، لقد كان الوادي الرطب والذي يحوي شجرات عدة من القيصوم ممتلئاً بالأفاعي الصغيرة، والتي يطلق البدو عليها هنا: «صلُّ أحماد»، وهذا الصلُّ له هيئة غريبة وسلوك غريب، فهو يلتف على نفسه بدائرة، ثم يرفع رأسه ويطلق أصوات هسيس مخيفة، ويلمض بلسانه المشقوق ذي الشعرتين، ثم يرمي بنفسه على البشر بقوة، وحينذاك تكون لدغته قاتلة.

**

لقد سرنا حينذاك فوق الهضبة، فالأفاعي تفضل هذه

الوديان لأنها دافئة ورطبة . وأخذنا نتجنب هذه الأماكن التي ما إن نغرز أقدامنا فيها حتى نشعر برطوبة ما ، أو بنزيز قليل من الماء ، ولكن بعد مسيرة مئة ياردة فوق الهضبة كنا شاهدنا عند منخفض آخر بناية شبه مهدومة ومهجورة ، فانخفضنا سريعاً خلف تلة قريبة ، وطرح النقيب على الرمل خارطته وأخذ يعين الشواخص تبعاً لها ، فإذا بها هي البناية التي كان من المفترض أن يكون البدو من بني جدلة مختبئين بها ، وهنا سأل النقيب البدوي منور :

-منور هذا هو المكان االي بيه جساس . . .؟

فصعد منور على التلة بسرعة فائقة ، ووضع يده فوق عينيه مثل مظلة ، ثم هبط بسرعة أيضاً بأقدامه الحافية ، وقال :

- إيه ، هو هذا المكان .

يعني هذه البناية المهدومة هي التي يقطنها جساس بني جدلة ورفقائه ؛ يعني الهدفَ الذي جئنا من أجله .

-١٦-

أمرنا الضابط بالتفرق إلى قوتين : قوة تتحرك من اليمين ، وقوة أخرى تتحرك من الشمال ، وحسب الضابط فإن جساس آل جدلة لديه راصد من رفاقه ، سيشعر بوجودنا ، ويقوم برصدنا وضربنا من مسافة بعيدة ، ولذا علينا الاقتراب بصورة متسللة ، ومتخفية ، وعلينا أيضاً أن نكون في غاية الحيطة والحذر عند اقتحامنا للمكان .

ثم جاءت الأوامر : علينا البروك أولاً ، ومن ثم التقدم بحركة الغوريلا ، وعندما نكون في خط الشروع ، أو إلى مكان قريب من الهدف ، بحركة واحدة نقتحم المكان ونتمكن من مباغتة العدو ، أي نقوم بصولة سريعة نحو جساس ورفاقه وحين ذاك إما أن نأسرهم ونحملهم معنا إلى القاعدة أو نقتلهم . ومن المستحسن ، قال النقيب ، أن نأسرهم ، لنعرف فيما إذا كانوا يتعاونون مع واحدة من الاستخبارات الأجنبية ضدنا بوساطة عربية ، أم هم يعملون لحسابهم ، ولكن إذا أبدوا أية مقاومة فعلينا قتلهم في الحال .

**

وهكذا تقدم الرهطان نحو الهدف من طريقين متعاكسين، كنت أنا مع رهط من الجنود ومجيد معنا من جهة اليمين، وكان النقيب من جهة الشمال مع رهط آخر من الجنود، وكان منور البدوي معهم أيضاً، بينما بقيت القوة الساندة على التل لتؤمن لنا انسحابنا.

كنا أطبقنا على الهدف من جميع الجهات، وعندما وصلنا إلى نقطة قريبة من الهدف، غير النقيب خطته، فقد رفع يده لنا إشارة بالتوقف، وكنا على مسافة بحيث يمكننا من رؤية يده، ثم صاح بصوت منتصر:

- جساس إحنا ندري أنت موجود في هذا المكان . .المكان مطوق من كل الجهات . .أحسن لك استسلم . .وراح نعاملك معاملة حسنة . .

مرت دقائق . . . غير أننا لم نسمع شيئاً، عندها، رفع الضابط يده بإشارة الهجوم، وما إن أنزلها، حتى رفعنا أنفسنا عن الأرض، وبلحظة واحدة هجمنا عليهم وأطبقنا على الهدف مثل أجنحة العقاب.

**

كانت البناية المهدومة خالية، وهنالك بعض الآثار على وجود حياة فيها. فكانون النار لم ينطفئ تماماً، ومن فحص منور البدوي له فإن جساس ورفاقه كانوا قبل نصف ساعة بالكثير في هذا المكان، أي بمعنى آخر أنهم ما زالوا هنا، أو في منطقة قريبة.

ولكن السؤال الحقيقي : كيف عرفوا أننا موجودون في المنطقة؟ أو كيف عرفوا بأمر العملية السرية التي ننفذها الآن وهربوا بهذه السرعة الكبيرة؟

-١٧-

لم تكن تلك اللحظات على ضابط الفصيل سعيدة . ولم يكن أحد من الفصيل البطولي الذي جاء زاحفاً ليقضي على العدو بضربة واحدة فوجد المكان خالياً ، سعيداً ؛ ذلك أننا حين عدنا ، كنا مرعوبين تماماً ، عدنا ونحن نتلفت وأيدينا على زناد بنادقنا لا نعرف متى يباغتنا العدو بلحظة واحدة ويطبق علينا مثل جناحي العقاب ، ذلك أنه لا بد أن يكون موجوداً هنا ، وعلى مقربة ، كما تثبت ذلك تلك النار الهافتة الموجودة في الكانون .

- كم شخصاً . سأل الضابط البدوي منور بصوت جاف وحاد .

استدار البدوي على الكانون وأخذ يعاينه ، ويحسب بيده الآثار الموجودة حول النار . رفع رأسه لنا ، وقال :

- خمسة!

- مسلحين لو لا . .؟ قال له الضابط بعينين حذرتين .

- كلهم عندهم سلاح . قال البدوي دون أن ينزل عينيه عن الضابط .

- من أين عرفَ . .؟ قلت أنا مستغرباً لمجيد .

- من آثار وضع اليد على الأرض . قال وهو يتفحص المكان وراء البدوي وكأن له معرفة هو أيضاً ، أو أراد أن يتعلم . وحينما رآه البدوي أخذ يشير له بإصبعه على أماكن الجالسين ، وعلى الآثار ويوضح له الفروق بينها .

لحظتها التفت الضابط لنا بعد أن مسح على شاربيه ، وأمرنا بالتوجه إلى مكاننا الأول ، إلى المبنى المهجور الذي كنا فيه ، حيث أراد أن يخبر القاعدة بما حدث عن طريق المخابر .

قال : لا بد من أن نبعث للقاعدة برقية سريعة عن الموقف الآن ، ونستفسر منهم عن تغيير الخطة .

**

سرنا قافلين على خطا الطريق الذي جئنا منه ، بينما قال البدوي إننا يمكننا تتبع البدو شرقاً حيث بانت آثارهم ، إلا أن الضابط لم يوافق على ذلك ، قال إنه لا يمكن التصرف في هكذا ظروف ، وأن يغير الخطة من دون أن يخبر القاعدة ، وبما أنه تخلى عن المخابر في المكان الذي كنا فيه ؛ لذا تعذر عليه اتخاذ قرار سريع ، وبالتالي رأى أن عليه أن يعود الآن إلى المكان الأول لاتخاذ تدابير جديدة .

مع أن النقيب رعد أدرك خطأه بوضع المخابر في المكان الأول ، فلو كان المخابر معنا لاتصل الآن بالقاعدة وأخبرهم عن الموقف . . .إلا أنه تظاهر بأن الأمر كان طبيعياً ، وتوجَّب علينا

العودة وتضييع ساعتين على الأقل عن اللحاق بالعدو في الصحراء .

سرنا على الطريق الذي جئنا منه قافلين ونحن نتلفت حذرين ، وكانت مسيرتنا بطيئة ، وكأننا في كمين أو كأننا محاصرون ، وكلما كنا نهبط أسفل واد ، أو منخفض ، نشعر بأنهم سيخرجون لنا من المرتفع العالي ويصوبون بنادقهم علينا ، وبالتالي سيذبحوننا كما ذبحوا فيما مضى ضباطنا .

-١٨-

في لحظة من اللحظات، وبينما كنا سائرين على طريق العودة، متتبعين المسار نفسه والخط نفسه، توقف الضابط في مكانه متوجساً، شاعراً بخطر هجوم مفاجئ من قبل بني جدلة.

لا أعرف كيف شعر الضابط بخطر داهم وقريب. فالتفت إلى منور وقال:

- يجب تغيير خط العودة، من غير الممكن أن نعود من المكان ذاته.

ثم التفت لنا، وقال:

- من المحتمل جداً أن يعرف جساس وبنو جدلة طريق مرورنا، إما عن طريق آثار أقدامنا، أو عن طريق الأصوات الصادرة منا... وبالتالي فإنه من الناحية الأمنية لا يمكن لنا العودة من الطريق ذاته.

**

هز منور رأسه واندفع نحو مقدمة الفصيل وأشار بيده شرقاً، محدداً طريقاً آخر للعودة.

فطلب منا أن نقطع الطريق شرقاً ، وكأننا نتعقب البدو الفارين ، ثم ننحرف جنوباً لنتخذ طريقاً ملتوياً للوصول إلى مكاننا الأول ، وقال :

- هذا الطريق صعب ويتجنبه بنو جدلة . .

- لماذا يتجنبه بنو جدلة؟ سأله الضابط .

- لأنهم بدو صحرا . . بدو تراب . . ماثُم بدو جبل وهضبة .

فسرنا على الطريق الذي حدده لنا ، وهو الانحراف عن التلال الرملية العالية ، والوصول إلى أرض قاسية تحت أقدامنا ومنبسطة ، أشبه ما تكون ساحة فارغة ومكنوسة بين التلال الرملية المتحركة والجبال الغيرانيتية السوداء ، وكان علينا قطع هذه المسافة الطويلة ، ومن ثم تسلق الهضبة الحجرية العالية .

لقد كان الطريق وعراً ، وكانت جزمنا مخصصة للمسير على الرمال ، ولم تكن مخصصة للمسير على الأراضي الصخرية القوية ، وهكذا كانت أقدامنا تنزلق بسرعة عن الحجر ، وكأننا نسقط في الهاويات العالية ، بل كنَّا في بعض الأحيان نزحف على الحجر ، بسبب الخوف من هذه المرتفعات الشاهقة والملساء ، بينما كانت أقدام منور الكبيرة والحافية تتعلق بالصخور مثل مخالب نسر ، ويصعد بيديه مثل القرد ، يهبط ويصعد بسرعة عالية .

كان الضابط قد ندم لأنه وافق على الصعود إلى هذه الطريق ، ولكنه ابتلع ندمه وسكت ، ولكنني كنت أرى في

عينيه عدم رضا تام ، وقد شعر بأنه ورَّط نفسه في القبول بهذه الطريق ولكن تغيير رأيه لم يكن أمراً حسناً ، بل أصبح متعذراً ، وهكذا كان يجاهد للوصول إلى مكاننا الأول بكل صورة .

-١٩-

بعد مسيرة كيلومتر واحد فقط ، أصابنا الإعياء بسبب وعورة الطريق ، فأخذنا نلهث . وكانت الرطوبة تصعد على خلاف الطقس الجاف الذي كنا فيه فوق الرمال ، وليس الارتفاع فقط سبب الرطوبة في هذا المكان ، إنما هنالك تحول في الطقس قد حدث فجأة في كل الصحراء ، فقد شاهدنا ونحن نصعد سحباً كانت تتشكل بسرعة كبيرة في السماء ، تحجب الشمس أحياناً وتظهرها أحياناً أخرى ، ولكن بعد دقائق شاهدنا الشمس أخذت تختفي شيئاً فشيئاً تحت هذه الغيوم السوداء الكثيفة القادمة من الشمال ، ومنحدرة نحو الجنوب .

وكان منور يتفحص السماء بعينيه الحذرتين ، ومن اضطراب حركاته وسرعتها شعرنا بأنه يحدس شيئاً غريباً ، وما هي إلا لحظات حتى تلبدت السماء بالغيوم ، وكأن الصحراء التي نراها من هذا المرتفع قد غرقت بيوم رمادي كئيب ، كانت الغيوم تلامس الأرض لسوادها وثقلها ، ونحن نسير ونتنفس بصعوبة ، كان يمكن أن نتوقف قليلاً ، ولكن الضابط أمرنا بمواصلة المسير ، فلا بد لنا من العودة إلى مكاننا ، وهكذا أخذنا

نسير بسرعة على حجر أسود أملس حاد مثل السكاكين في بعض مواضعه ، ولأن منور كان يريد بنا النجاة من بني جدلة فقد أخذنا عبر أماكن يصعب التسلق عليها ، وشعرنا في كل لحظة وكأننا كنا نتدحرج إلى الهاوية .

كنت أسير وأنا أغمض عيني بعض الأحيان ، وفي أحيان أخرى كنت أستسلم لما تفعله قدماي مع الحجر ، وكأنني أنزلق بعض الأحيان إلى المنحدرات ، وفي بعض الأحيان نتوقف ليقودنا منور إلى أماكن أخرى بعيدة ، ولكن يمكننا اجتيازها ، لأن بعض الأماكن التي كان يقودنا لها من المتعذر علينا اجتيازها مطلقاً ، بينما كانت سهلة عليه سهولة كبيرة .

**

قادنا في طريق محصور بين مرتفعين يسهل المسير فيه ، وإن كان ضيقاً جداً ولكن كان يمكننا اجتيازه ، والعبور إلى هضبة شبه منبسطة ، وكمية الأحجار فيها أقل بكثير من هذا المرتفع الذي كنا فوقه .

وما إن دخلنا هذا المضيق حتى سمعنا الرعد يجلجل ، وكان الوقت حوالي العاشرة والنصف ضحى ، فقد استغرق مسيرنا أربع ساعات . عندها أضاء لنا وميض البرق الصحراء برمتها ، وأضاء لنا برق آخر أطول زمناً بعد أن ضرب بنوره المخيف الوادي الذي كنا على طرفه ، ولولا الصياح شبه المتواصل لضابطنا لعدنا راكضين إلى مكان نحتمي به من المطر .

كنت أشعر أن الطبيعة الحزينة تتخلى عنا كشاهد ، ونحن لم نزل تحت صدمة المشهد الذي مر بنا ، وكان يمكن أن نتخيل المعركة الدامية التي كانت ستحدث بيننا وبين بني جدلة ، لو كنا ألقينا القبض عليهم ، غير أن منور قال :

- إن هذه الغيوم والرعود والبروق قد بعثها بني جدلة لإعاقتنا . .

لقد كان البدو يعتقدون أن بني جدلة لهم قدرة على تسيير الطبيعة وفق مشيئتهم ، وكانت البروق نسبة لهم أيضاً نذراً تنبئ أطفال الأرض بالفواجع الجسيمة .

-٢٠-

قد وصلنا أسفل مرتفع يسمى الرأس الأبيض ، وعلى الشمال منه ترتفع قمة سوداء من الصخور الغيرانيتية الغامقة ، وقد جعلنا المطر نزحف على شرائح من الصخور البيض ، حيث كان عنفه يدفعنا على الصخور ، وكأننا مرميون وسط مد عال يغمرنا بالرمل المتلألئ الذي ينحبس حتى يصل إلينا ، وكان صوت الرعد الأصم المنتظم يرتطم على الصخور ويدوي وحيداً ، كان يهز عند كل ضربة الممر الضيق الذي كنا نسير فيه ، وكأننا معلقون على حافة الهاوية ، ومن بعيد كانت رمال الصحراء تلمع تحت المطر مثل طبقة فضية واسعة .

«هل نتوقف هنا؟» . سأل منور الضابط بحذر .

وكنا نحن بطبيعة الأمر مستسلمين لنبوءات منور ، ولأوامر الضابط الحازمة ، حتى كأنني كنت أشعر لحظتها بهذا الصراع الخفي بين الطبيعة التي كان يمثلها منور وبين مقاومة الطبيعة التي كان يمثلها الضابط ، كان النقيب يحاول أن يقهر الطبيعة بقراراته وأوامره ، وكان منور ، بشكل ما ، يسخر من هذا الضابط الرياضي ، ابن المدينة بعضلاته المفتولة وشواربه المنسقة

وأسلحته الفتاكة وهو يصبح ألعوبة بيد هذه الطبيعة القاهرة التي يسخرها هنا بنو جدلة لخدمتهم .

صاح الضابط وهو يثبت قوته وقدرته :

« علينا أن نسير فلا وقت لدينا» .

رفع منور رأسه إلى السماء ، وكمنْ يعاين مهرة شاردة بعيدة ، كان يعاين المطر حتى شعرت أن بعض قطراته تهبط في عينيه مباشرة ، سكت قليلا ، وأصغى لنداء بعيد ، وكان كمن يخمن شيئاً منبعثاً مثل شرارات قادمة من السماء ، وقال بصوت هادئ :

- راح تجي عاصفة قوية وفيها أحجار صغيرة نسميها الحصبا وتضرب وتقتل ، وبعدها يعود المطر شوية وتنجلي السحابة ، وتعود الشمس .

ما هي إلا لحظات حتى هبت عاصفة قوية ، إنها عاصفة منتصف النهار ، وفي الواقع وإن لم تكن لدي أية خبرة في الصحارى ولكنني لم أر مثل عنفها أبداً ، شعرت بالغيوم وقد ارتفعت مثل أبراج فوق تل أسود ، وغطت سريعاً ذروته ، وما لبث المرتفع الصخري الذي كنا نسير عليه أن غرق شيئاً فشيئاً في أمواج متواترة من الأمطار التي شقتها من هنا وهناك السيول .

لقد شعرت وبلحظات قليلة أن الأفق قد انخفض وضاق علينا ، وكان هزيم الرعد واحداً مهيباً متصلاً ومصمماً مثل صخب الأمواج عند ساحل البحر . والبرق ينهمر مثل سيول

من النار من السماء على السفوح السود ، وكانت هنالك بضع أشجار تنحني ، وكأن الريح تخرج من شعب الجبال والمغارات كي تطيح بنا ، لو لم نكن قد انبطحنا على الأرض . لقد وجدنا لنا ملاذاً صغيراً خلف إحدى الصخور في القاع ، وكانت الأوراق الجافة التي انتزعتها العاصفة تدور فوق رؤوسنا ، والحصبا تضرب في كل مكان من الصخر ، والسيول تهطل من المرتفعات الصخرية التي من حولنا .

-٢١-

كان الضابط يعاند الطبيعة ، ينظر إلى ساعته ، ويرفع رأسه إلى السماء ، ويحرك أكتافه العريضة ، ويزم شفتيه ، ويقطب حاجبيه على عينيه الغاضبتين ، كان في سره يقول لو كان هنالك عدو ويحمل معه سلاحاً لتقابلنا وانتصرت عليه ، ولكن الطبيعة بعيدة وقاهرة ، وهذا ما يجعل منور ساخراً من هذا الضابط العنيد .

مع ذلك لم يستسلم الضابط لهذا البدوي حتى بدا وكأن البدوي هو القائد وليس هو . هذا الذي حل فجأة محله تقريباً وأخذ ينازعه قيادته ؛ لأننا في الواقع لم نكن مقتنعين بكلام الضابط قدر اقتناعنا بكلام منور ، كان كلامه قريباً جداً من الوقائع ، ولذلك كنا ننظر إلى شفتيه ، بينما كان الضابط يشعر أن كلامه لم يكن يبعث فينا الأمَل أو يشعرنا بالراحة . . ومع ذلك لم يستسلم لمنور وحدوساته الجهنمية ، فقال :

«طيب . . ننحدر على تلك الهضبة الرملية!» ، وأشار بيده إلى هضبة رملية قريبة ، «ونحتمي هناك ، لأنه لو بقينا على الصخور يمكن أن تنزلق أقدام الجنود ويسقطون في الهاويات . .» .

على أوامر الضابط وتنبؤات منور غادرنا المرتفع العالي لنقطع طريقاً آخر نحو هضبة رملية تقع بين المرتفعات ، وبها منحدر أيضاً ، ثم أمرنا الضابط أن ننزل فيه لنحتمي من الحصباء التي كانت الرياح تحملها معها في العاصفة ، وأخذنا نخوض تحت المطر في الرمال حتى غاصت أقدامنا فيها .

بعد لحظات تبيَّن الضابطُ كذلك خطأَ رأيه ، فمع بدء العاصفة أخذت السيول الطينية تهبط علينا من مرتفع عال يشرف على الهضبة وبأعداد هائلة ، كادت السيول أن تغرقنا بسبب قوتها وعنفها . وهنا التفت الضابط إلى منور مستنجداً ، فاندفع منور أمامنا إلى صخرة عالية مواجهة للسيول من الجهة الأخرى ، وتبعناه نحن أيضاً ، وأخذنا نخوض بالرمل حتى وصلنا إلى هذه الصخرة واحتمينا بها ، وكان الضابط يمشي وراءنا ببطء ، لكي يثبت لنا عدم اكتراثه ، فارضاً علينا استعراض قوته ولا مبالاته إزاء عوامل المناخ ، وحاجباً كذلك لحظة ضعفه التي مرت قبل قليل واستنجاده بمنور ، غير أنه بعد دقائق تمدد إلى جانبنا محتمياً بالصخرة العالية من السيول التي كانت تهبط إلى الوادي . فرش جسده على الصخرة وأخذ يلهث مثلنا .

**

قال منور بعد أن انجلت العاصفة إن ساعةً واحدة تكفينا لكي نصل إلى مكاننا الأول الذي جئنا منه ، ولم يكن الأمر سهلاً . .كانت الدقائق بطيئة ، وملابسنا مبللة ، وأسلحتنا

غاطسة بالماء ، وشواجير الرصاص تقطر ، وجزمنا الخاصة بحروب الصحراء كانت منقوعة حتى أصبح من الصعب علينا المشي بها .

-٢٢-

لقد حولنا هذا المطر الأسطوري إلى ما يشبه حساء عظام ، كل شيء كان ثقيلاً علينا : ملابسنا المنقوعة ، أقنعتنا الصوفية التي كان علينا أن نخيف العدو بها ، الرصاص ، الأربطة ، العلم الذي حملناه ، كل شيء ، كل شيء ، وعندما هدأت السماء شاهدنا الغيوم وهي تتحرك في السماء بسرعة كبيرة ، بعضها كان مثل كتلة بخار تتدحرج ، وبعضها كان يمر بحيث تراها وهي تصطدم بالأحجار والمرتفعات ، وكنا نسير ببطء وتعب كبير ، ولكن اليأس لم يدب بعد في قلوبنا .

**

لقد أذهلتني الصحراء بآنيتها وتحيينها بطبيعة الأمر ، كل شيء يتمثل فيها عبر علاقات الضوء والظل على الأرض بلا تضاريس أو نتوءات حادة ، لم نكن نعرف نحن الجنود الصغار ذلك الوقت أن الماضي والمستقبل يمكن أن يكونا هنا في الصحراء في وقت واحد ؛ لأنه لا تعاقب هنا مطلقاً ، في المدينة ترى الماضي مرسوماً على الجدران المتآكلة ، على حديد النوافذ الصدئ ، على بنيد السيارات ، على الإسفلت المحفور ، على

الخشب المتهرئ، على القماش البالي، على كل ما هو يتقادم ويتغير لونه، لكننا هنا على الرمل الذهبي الذي يحتفظ بلونه منذ آلاف السنين، هنا لون الجبل ذاته، وسماكة السن الصخرية ذاتها منذ أن سار الملوك البابليون والأنبياء الساميون على هذه الأرض، أما تعاقب الفصول عبر السنوات فإنه يجري كما لو كان فوق سطح أملس.

**

يترك الحاضر لكل لحظة قادمة مكانه، لا خضوع هنا إلا للمكان الخالي من أي ظل أو سماكة، إنه التمدد في تزامن الصحراء، حيث يتحول الزمان إلى مكان.

كان الضابط يتجاهل أن الطبيعة لا تستجيب للقرارات المسبقة للبشر، بينما كان منور يترك نفسه أسيراً لها، وفي هذا الأسر ثمة من وعي ذاتي، هنالك نظر حر وغير متوقع، يجعل الحوادث تنبثق عبر الرؤية التي يقبض عليها. كان يقف في الموقع ذاته مثله مثل الضابط ومثلنا جميعاً، ولكنه يدرك أن هذا الموقع لا يمكن المحافظة عليه، وهو لا يتردد في تركه، كان يستجيب لموقع آخر ينبثق من داخله، كان يدرك أنه من المحال السيطرة على هذه الطبيعة التي تحيط بكل شيء، وتسيطر على كل ما تخلقه، ولكنه وفقاً لاندفاع حرية لا نهائية في داخله، يجد حريته في الاستجابة لها لا في معاندتها، إنه لا يخلق شيئاً مانعاً أو مضاداً مثل سكان المدن الذين يخلقون كل شيء لقهر الطبيعة.

منور أمامي ، يمثل شعباً قديماً قدم الخليقة ، كأنه جاء من التوراة التي أنتجت المسيحية والإسلام معاً ، إنه هناك محدد ، مقتصد ، متقشف ، موضوع في مكان ما ، وموجه ضمن العالم الذي يؤكده ، أو يمثله . إنه لا يكتب الطبيعة إنه يقرأها ، إنه يبحث عبر مظاهرها عن شيء يقرأه ، ومع أنه يتحرك حركة صعبة وغامضة ، ونحن نتحرك وراءه ، ووسط هذا الوضوح نجد أننا بلا حرية ، أو أن الحرية هي التي تتلاعب بنا ، فكل شيء أمامنا مفتوح ومفضوح ، وهذا سر خسارتنا واندحارنا ، نحن أمام الحرية ولكننا لا نعرف كيف نتصرف بها ، بينما هي ملك كامل لهذا الشعب الأمي .

-٢٣-

كنت أنظر إلى منور ، كـــان أشــبـــه بكوفـــيـــة أُسيء استخدامها ، وقد دهشت لرؤيته عن قرب ، إنه أشبه بممثل هوليودي وسيم ، لو كان يجيد الإمضاء على صوره .

كنت اقتربت منه كثيراً ، في تلك اللحظة ، وهو يوجه تعليماته فيما يخص ما نفعله إزاء الأمطار والإعصار والعاصفة التي جاءت على نحو غير متوقع ، لم يكن وجهه يهبط إلى أســـفل مطلقـــاً ، كـــان ينظر إلى الأعلى على الدوام ، وهو يراقب . . .كـــان يراقب الجـــمـــيع ، يراقب الأيدي والأقـــدام وحركات الأوجه والعينين ، ويترقب الشفتين ، وينظر الرمل على التلة ، والصخرة في المرتفع ، والغيمة في السماء ، ويشم التراب ، ويعلس ما تقع عليه يده من أشياء ، أو يفرك ما تقع عليه يده من أشجار أو صبار ، ويتذوق الماء ، ويتحسس الرطوبة بقدميه الحافيتين .

كان وجهه الغريب والأسمر الصافي وهو ابن العشرين غريباً على أبناء المدن ، كان بنصفين ، نصف وجهه قاسٍ جداً ، ومخادع وماكر ، والنصف الآخر بالغ الرقة والجمال حتى لتغدو

ابتسامته التي يستأثر بها هذا النصف ، أنثوية ، وهنالك خصلة من شعره الأسود الفاحم تنحدر على جبينه ، وكان يطوّح بها وهو يتكلم كما لو كان منْ يتكلم معنا صبيٌّ مستاء .

**

بعد ساعة تقريباً هدأت الريح ، وانقشعت الغيوم وظهرت الشمس ساطعة متلألئة ، فعاودنا مسيرنا نحو البناية المهدومة التي غادرناها في الصباح ، وكنا جياعاً ومتعبين جداً ، وأخذ مسيرنا البطيء والمتثاقل يعكس معنوياتنا ، فالصورة بطبيعة الأمر لم تكن تماثل الصورة التي ذهبنا بها نحو العدو في الصباح .

**

لا بد أن النقيب هذا اليوم شعر بهذا الإلزام الضروري لموقعه كقائد . لكن يا ترى ما هو؟

كان يتحرك بمسؤولية كبيرة ، حركة ثابتة نحو الهدف ، أمر لا محيد عنه ، كان يحاول أن يرينا نفسه بالقوة التي جاء بها ، كان يرفع صدره إلى الأعلى وينظر بعينيه السوداوين الفاحمتين بقسوة ، كان يحاول الاحتفاظ عند الضرورة بشبهه بنفسه : كان يريد أن يكون الضابط المنضبط بشاربيه المقصوصين شبه الأفقيين ، ومقدمة رأسه السوداء الملمعة على جبينه الجامد ، لا يمكن للرتب أن تهوي أو تتزحزح من مكانها ، لا يمكن للمسدس أن يخطئ في موضعه ، لا يمكن للألق الغاضب أن ينطفئ في عينيه وهو قائد هذه المهمة الصعبة ، لا يمكن لنبرته

الواثقة الشهيرة أن تخفت أو ترتعش أو تخاف أبداً ، لا يمكن للثقة بالنفس أن تتهاوى أو تتحطم على أعتاب مكر البدو الجهلة أو خداعهم .

كان يثب من مكانه أمامنا بالقوة ذاتها التي رأيناه فيها وهو يهرول في القاعدة ويحمل بندقيته ، وقفازاته ، ويعدل من شاربيه على وجهه الأسمر الغاضب ، وقد تحول من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه ، ومن نعل حذائيه إلى بيريتته ، ومن جواربه إلى نطاقه ، ومن بندقيته إلى سيجارته . .إلى قائد فصيل غارة الصحراء .

-٢٤-

لقد وصلنا إلى المكان الذي انطلقنا منه في الصباح ، على أمل أن يبعث الضابط برقية للقاعدة ليخبرهم بتغيير الخطة ، ومن ثم ننطلق وراء بني جدلة في الصحراء .

وصلنا قريباً من الموقع ، فأمرنا الضابطُ أن نقف ونعدل من قيافتنا وهندامنا ، وأن نتفحص أسلحتنا وأرزاقنا وأن نرمي التالف منها ، وأن ننظف أحذيتنا من الماء ، وأن نستعيد لياقتنا التي جئنا بها وانطلقنا بها من هذا المكان ، ثم أمرنا أن نقف دقائق لكي نتنفس بعمق وأن نغمض أعيننا قليلاً ، ثم خطب بنا خطبة قصيرة .

قال إن القوة العسكرية المكلف بها أدت اليوم واجباً عظيماً للبلاد وللقائد ، وإنه سعيد بما فعلناه ، على الرغم من أننا لم نستطع القبض على العدو ، وقال إن الجميع بلا استثناء كان على قدر عظيم من المسؤولية حتى منور ذاته ، فقد نال شرف الوطنية ، وشرف المهمة التي عمل من أجلها ، وكان منور يقف أمامنا بقدميه الحافيتين ودشداشته المنقوعة ويشماغه الذي تحول إلى خرقة وسخة ومملوءة بالرمل ، كان يقف أمامنا مثل

عصفور منقوع تحت المطر ، أما نحن فكنا نقف بصعوبة على الأرض ، وملابسنا المبللة تقطر ماء ، وكانت أسناننا تصطك وتقزقز من البرد ، ونحن نسمع هذه الخطبة وكأنها عن فصيل غيرنا .

لم يكن هنالك واحد في الفصيل يشعر بعظمة ما قدمه باستثناء الضابط ، الذي استعاد هندامه بسرعة ، وعدل رتبه ، ومسدسه ، ونطاقه ، وبسطاره ، وأخذ يتحرك حركاته العسكرية التي تعود عليها ، ثم أخذنا بالنسق لندخل المكان المهدوم الذي انطلقنا منه .

**

في الواقع كان دخولنا أشبه بالصدمة ، فلم نكن نعرف ضخامة المهمة التي جئنا من أجلها حتى دخلنا المكان الذي كنا فيه صباحاً ، وتركنا فيه نفرين من الفصيل مكاننا ؛ المخابر محمد ورائداً من قوة المناورة .

لقد وجدنا المكان خالياً . في البداية قلنا ربما تركا الواجب وراحا يتنزهان في مكان قريب من هنا ، ولكن أين جهاز التومسن ، هل من الممكن أنهما أخذاه معهما ، ربما صعد محمد المخابر إلى مكان مرتفع ليؤمن الاتصال ، ربما ذهبا لقضاء حاجتهما خلف مرتفع قريب ، أو خلف تلة رملية .

خرج الضابط بسرعة من المكان ، وصاح بصوت عال بعد أن وضع يديه حول فمه :

جندي مخابر محمد سعدون . .جندي مخابر محمد

سعدون . .عد إلى مكانك بسرعة . .

وضع يديه على فمه مرة أخرى وصاح . التفتت كلُّ عيوننا ، بشكل لا إرادي ، إلى منور فرأينا ابتسامة المكر في عينيه ، هز رأسه بطريقة يائسة ، رفع حاجبيه وهزَّ كتفيه ، قال لنا إن هذا المكان قد شهد معركة عنيفة بالأيدي ، وهناك دم على الجدار ، ومن الممكن أن الجنديين قد اختطفا ، ولم يتركا المكان ويذهبا للتنزه في الصحراء .

هل اختطفهما بنو جدلة؟

- بنو جدلة! قال واكتفى .

-٢٥-

لم يغب عنا في تلك اللحظات الشعور بخطورة مسعانا ، والمأزق الذي وقعنا فيه ، جهاز المخابرة غير موجود ، والمخابر مختطف ، وهنالك واحد من أفضل جنودنا مع بني جدلة الأعداء . ماذا سنصنع الآن؟ ما الخيارات التي تتوافر لدينا؟

لم يعد بالإمكان الآن إخبار القاعدة عن تطورات الموقف من أجل تغيير الخطة كما كان يقول لنا النقيب ، لكن عليه أن يتصرف ، علينا في البداية ، كما قال ، وقد شعرت بعينيه الغاضبتين ، وشفتيه الراجفتين ، استعادة جندينا المختطفين ، واستعادة أجهزتنا المسروقة أيضاً ، قال :

- لا تفاوض مع بني جدلة . .

وكأنهم جاءوا ليتفاوضوا معنا .

التفتنا إلى منور ليحدد لنا من أين ذهب بنو جدلة بالمختطفين ، ركض عبر الباب وقد خلع يشماغه المبقع والمبلل ، واستدار حول المكان ، ونحن وراءه ، بينما أشار لنا بالتوقف ، ثم أشار إلى الطريق الشمالي الغربي ، وقال :

- مروا من هنا .

وقف الضابط أمامنا ، وأراد أيضاً أن يقول خطبة ، غير أن الكلمات لم تسعفه بسبب الغضب الذي كان يشعر به ، والمهانة التي لحقت به من بني جدلة . الشيء الوحيد الذي قاله :

- لا رحمة معهم . .

ثم التفت لنا وأشار إلى جواد الرامي من قوة الهجوم بأن يكون معه ، وإلى محمود جندي الطبابة من قوة الإسناد أن يكون معه ، والتفت إليَّ وإلى مجيد أيضاً من قوة المناورة لنكون معه ، وأمر سمعان من قوة الإسناد وجليل وعباس من قوة الهجوم بالبقاء في المكان .

ومعنى ذلك أنه ، بعد أن اختطف جندي المخابرة بقي من الإسناد اثنان ، واحد يلتحق بفصيل التعقب والآخر بفصيل الحراسة ، وبعد رحيل واحد من المناورة التحق كلانا بفصيل التعقب ، أما ما تبقى من قوة المهاجمة فاقترح الضابط أن يبقى اثنان منهم مع الحراسة وواحد يلتحق بفصيل التعقب والمهاجمة مع الضابط ، مما يعني أننا ، نحن مع الضابط خمسة سنتعقب بني جدلة ، ويبقى ثلاثة في المكان .

**

انطلقنا بقوة وراء الدليل نحو الشمال الغربي لتعقب بني جدلة الطائرين الآن في الريح ، والمتخفين في الرمال المتحركة ، وهذا جعلني أفكر في تلك اللحظة بما كان يفكر به النقيب وما كان يفكر به جساس .

-٢٦-

كـان النقيـب يركز على عمليـة مـسك الأرض ، كـان يركـز كل لحظة على المكـان الذي سـيـبـقى به شـخص مـا ، المكان المحروس والآمن ، أي المكان الذي سنعود في النهاية إليـه ، فلا يستطيع النقيـب وبشكل لا شعوري أن يفكر كما يفكر البدوي جسـاس ، يعني أن يلتحف السمـاء ويفرش الأرض بوصـفـهـما وطنه .

كـان النقـيب ينهـب الأرض في تعـقب بني جدلة ، كـان يشـعـر بمفـارقـة الأرض والمكـان ولكنه يشـعـر بشكل لا إرادي ، بارتياح ما ، لوجود مكان هنالك سيعود إليه بعد نهاية المهمة . إنـه المنـزل ، المأوى ، الملاذ ، الـوطن ، إنـه بـديـل الـوطـن الآمـن والمحـروس ، فـلا يمكن للضـابط أن يتـحـرك بلا أرض وراءه ، لا يمكنه أن يضع ساقيه على الأرض - أية أرض - ويقول لها أنت أرضي ، لا يمكنـه أن ينطلق بشكـل دائري ولا يعود ، فـهو يحـدد الأبعاد بشكل مستقيم ، هنالك ذهاب وهنالـك إياب ، هنالك رواح وهنالك عـودة ، ولا يمكـن أن تكون هذه العـودة إلا للمكان المحروس .

بينما كان جساس سعيداً . ذلك لأنه لا مكان له يستطيع النقيب أو القوة المهاجمة أن تتعقبه ، وتذهب به إليه ، إنه في اللا مكان ، هو موجود وغير موجود ، هو مقتلع ومنفي ، غريب ومتوطن ، حاضر وغائب .

جساس لا ينتمي إلا للطريق الدائري الذي يلتف على نفسه ، وفي كل مكان يصل إليه يشعر بأنه عاد إلى المكان الذاهب إليه ، إنه لا ينظر إلى الأشياء التي تحيط به ، إنه ينظر إلى نفسه من الداخل ، ينظر إلى مقدار راحته وشعوره بالأمان ، ينظر إلى سكناته وما بوسعه أن يراه من غبار الطريق أمامنا . إنه الطائر إلى كل مكان ، لأنه يؤمن بالفضاء ، هذا الفراغ الكلي الذي بإمكانه أن يخرج قضيبه ويبول فيه .

**

كان جساس – دون شك – لا يخشى فقدانه الأرض ، بل يظهر استخفافه بها ومفارقته لها ، إما أن يتجاهلها أو يتحداها ، إنه يحلق على المكان مثل القبرات وهي تحلق فوق الروابي ، إنه غير عابئ بالممتلكات لأنه يتحرك ، غير متحسر على الفقدان لأنه لا يملك ، لا يؤمن بالأرض لأنها ذاتها أينما دار وجهه ، إنه يسخر من هذا الضابط الذي يضع جنوده يحرسون له خربة ، بينما هو يملك النهار والأرض والسماء فوق التلة الرملية المترامية . إنه لا يفقد الحاجات لأنه يترفع عليها ، ولا يؤمن بالمنازل لأنها سجون إرادية بالنسبة له .

-٢٧-

كنا نتعقب بني جدلة على آثارهم ، وفي منتصف الطريق خطرت للنقيب أن يسأل البدوي عن عدد الرجال من آثارهم .

قال له إنه يرى خمسة رجال .

وهكذا انطلقنا حتى وصلنا مرتفعاً صغيراً ، وكانت عليه آثار شجر يابس ، ومن بعيد لاح لنا وجود أشخاص فيه ، وهنا تفرقنا وأصبح بين كل واحد منا عشرة أمتار ، واقتربنا من الهدف ، كانت هنالك قماشة خيمة تحترق ، وينبعث منها دخان أزرق خفيف في عامود تعمل الريح على ثنيه .

اقتربنا ، وقد لاح لنا الجنديان من ملابسهما ، لقد عرفنا أنهما جنديا فصيلنا ، فصيل غارة الصحراء ، فانطلقنا نحوهما .

كانا مطروحين على وجهيهما عند شجر يابس أعجف ، وآثار المطر التي غسلت الجبل الأسود بادية في كل مكان ، حجر يتألق نوراً تحت أشعة الشمس العالية ، لم تكن هذه الأشعة ذائبة كما كانت في الصباح إنما شفافة ، وهي تتقد بسطوع كوني ومتفجر ، متعددة الألوان ، ومضمومة في المركز وإلى المركز ، وحين وصلنا أدركنا الفاجعة الحقيقية .

عندما وصلنا وجدنا الضحيتين مطروحتين عند جذع شجرة عجفاء يابسة ، كان الجنديان مذبوحين ومرميين على الأرض ، فتوقفنا صامتين ، توقفنا مثل أسرى جاثمين في صمت على الأحجار .

**

فالمخابر لم يمت بعد ، كان يحاول أن يتكلم ، كما لو كان صوته يأتي من وسط الغيوم .

كان مستلقياً ورأسه ملقى على الأغصان اليابسة . كنا ننظر إليه وهو يبادلنا النظرات ، فجأة تقدم محمود المعالج وقد انتزع زمزمية القتيل وما يحمله في جعبته من طعام ، ثم انتقل إلى المخابر الذي كان يحتضر والذي لم يمت بعد حتى تلك الساعة ، وقد حاول أن ينتزع برفق منه الزمزمية وأخذ يفتش عن الطعام المتبقي عنده ، غير أن الجندي المحتضر نسي تلك اللحظة ما معنى الموت ، لقد مرت عليه أشبه بفكرة موجعة ، ومحسوسة أننا نسرق ماءه وطعامه ، فقد أخذ يشتم محمود المعالج بلسان متلعثم لأنه ميت تقريبا ، كان يلوي برأسه وهو يحتضر ولكنه بدا لي تلك اللحظة كليا وهو مستعد للشجار ، والقتال ، والشتم ، وكانت عيناه ، لن أنساهما أبدا ، وهما عينا ميت لا غير ، عينا ميت لا يمكنني أن أخطئهما ، بدتا مستعدتين لكل شيء ، حتى الموت ، ولكن بدتا غير مستعدتين أبدا لفكرة أن الطعام يتلاشى .

كنت أفكر ماذا نصنع نحن بمجاورة هذا الموت ، لقد نسيت السلوك اللاأخلاقي للمعالج ، وأخذت أفكر بالماء والطعام الذي لا نفع له لميت أبدا ، حيث يتخلص الماء والطعام من قوتهما كباعثين للحياة ليتمكنا من مواصلة وجودهما حتى الموت ، وكنت أتذكر ما يتحدث عنه أصدقائي الجنود في معتقلات الهاربين أثناء الحرب ، أثناء الحرب العراقية الإيرانية ، والذين كانوا يعدمون على شكل وجبات ، بأن الميت منهم لسبب من الأسباب ، لا يحذف اسمه من القوائم إلا بعد يومين من موته ، فهم ينجحون في استلام حصة المتوفى من جولة توزيع الطعام اليومية : لأنهم كانوا يرفعون يده مثل القراقوز ، ليستلموا حصته من الطعام والماء .

لحظات وأنا أنظر هذا الجندي الذي ينازع ، وهو ينظرني بنظرات ضعيفة واهنة تتضمن تلميحاً بالعتاب . وبرعشة قصيرة وعصبية توقف رأسه عن الحركة ، إنه يقدم لكل المتخمين على الأرض من بعد موته فتات حياة يفضح كل ما في هذا الكون من سخف وعبثية ، إنها حالة عصية على البلوغ ، وكأن ، لا شتائمه فقط ، إنما توسلاته الرهيبة أيضا ، وهذيانته التي تتحول في لحظة الموت إلى الحشرجة الرهيبة ، لم تكن سوى نتيجة هفوة بسيطة ، هفوة من هفوات المعارك التي لا نهاية لها .

-٢٨-

لم يكن المخابر وحده الذي أحزنني إنما رائد أيضا .

كان أكبر جنود الفصيل سنّاً ، وهو مسيحي من الموصل ، يتباهى بأنه يتكلم الكردية والآشورية القديمة والعربية والكردية والتركمانية ويستطيع ترجمتها جميعاً بالاتجاهين . كان يذهلني بقدرته على التحدث بجميع هذه اللغات وبالطلاقة ذاتها ، حتى لينسى بأية لغة هو يتحدث مع الآخرين ، وكلما دخل شخص خندقنا ، أو في الموضع الذي نكون فيه ، فإنه ينهض من مكانه ، ويدور حوله دورة واحدة ، ثم يعرف مباشرة من لكنته من أين هو ، ودون أن يسأله ينهمر عليه بلسانه السريع ، ويريه طلاقته .

كان طويل القامة ونحيلاً جداً ، إلى درجة أنه يبدو شبه ضائع في بدلته العسكرية الفضفاضة عليه ، وله عينان حشريتان بارزتان وصفراوان ، وشعره على الدوام منفوش ، وكان عسكرياً منضبطاً ، يحلق لحيته في اليوم مرتين ، ويصبغ بسطاره حتى أيام الهجوم ، وحين يغسل ملابسه فإنه يصففها بطريقة إذا جفت كأنها مكوية ، ولا يمكن لأحد من الضباط يراه

ويتجاهله ، وكان الجميع يقدرونه ويحسدونه بسبب علاقاته المتميزة مع القادة والأمراء .

وكان دائم العلاقة مع محمد سعدون المخابر ، وربما هجس الضابط هذه العلاقة وأبقاه معه ، والغريب أنه يقع في النقطة المعاكسة تماماً من صديقه ، بل ونقيضه كلياً في سلوكه وتصرفاته ، فقد كان محمد سعدون المخابر ثرثاراً لا يكف عن الكلام ، وكان أخرق يفتقر للكياسة على الدوام ، جاهل يتكلم على الدوام بأسلوب خشن ومبتذل ، وإذا نادى أحداً من الجنود فإنه يناديه بشكل فظ .

الشيء الذي يربط هذا النابغة بهذا الأخرق هو كلاهما محبان لرواية الطرائف والمغامرات العسكرية ، فما إن تنتهي المعركة حتى نجد أن كل واحد منهما لديه عشرات القصص التي يرويها عن الآخرين :

-أنت خفت . . لا تتكلم . . أنت خفت . . أنا رأيتك خائفاً . . وحين بدأ الهجوم تلكأت . . لا تنكر . .

أو . . يصرخ أحدهما بعد انتهاء الهجوم :

-شفتو شلون فلان تراجع . .

-الضابط الفلاني كان شجاعا جداً ، وهو الذي تقدم أول مرة على القدمات . . . وصعد على السواتر ، وحتى لما كان في الحجابات ما كان خائفاً أبداً . .

-٢٩-

أمـام القـتلى من رفـاقنا ، لم نفـعل شـيـئـاً مطلقـاً ، بقـينا متلكئين ، مضطربين ، متبلبلين ، غير دارين ماذا نفعل ، فجأة انبرى محمود المعالج وهو من قوة الإسناد ليمارس عمله ، جس نبض المخابر وقال للضابط بعد أن هز رأسه :

- مات . .

ثم انطرح إلى جانب الجندي الآخر «رائد» ، ومد يده إلى شريان في العنق ليقول له :

- ميت . .

ثم وقف ليدون في دفتره أسباب الوفاة بصوت عال ، لقد دون كل شيء بسـرعـة ، ضـرب قـدمـاً بالـقـدم الأخـرى أمـام الضابط ووقف إلى الشمال منه .

**

كنت أنظر إلى الجـثث ، وكـأني أكـتـشف الموت للمـرة الأولى ، أرفع رأسي وأنظر تعـبـيـر وجـوه الجنود إلى جـانبي ، وأكـتـشف للمـرة الأولى هذا البناء الداخلي المعـقـد للإنسـان ،

وهشاشة قوته العقلية ، وسهولة ارتكابه للعنف ضد الآخر .

كان محمود يتمنى أن يفتك بالبدو ، قال لو قبضت على أحدهم سوف لن نقتله ، إنما سنهشم له أضلاعه كي لا يتنفس ، ويظل يتعذب ونحن نبول عليه ، ونضع برازه في فمه ، وبعد ذلك نفتك به .

لا أدري لم لم أشعر في تلك اللحظة بأية مشاعر ضيق من هذا المشهد الذي كان يلح عليه محمود بتلذذ كبير ، مثلما كان يثير مشهد رفاقي المقتولين فيّ كل مشاعر الضيق والامتعاض تلك اللحظة ، وحتى مجيد والذي كان أكثر رفاقي رقة ، لم يشعر من كلام محمود بأي امتعاض .

كنا نقف مواجهين لبعضنا البعض ، جنوداً ، وضابطاً فاقداً لأعصابه ومرتبكاً ، ورفاقاً ينزفون دماً حتى الموت على أرضية محايدة ، أما الواقع فلم يعد طاهراً مثلما كان بل محتجباً خلف صورة وهمية ومصطنعة .

**

السؤال الذي طرحناه نحن جميعاً تقريباً لحظتها هو : هل نتعقب بني جدلة الآن أم نعود إلى المكان؟ أقصد مكاننا الذي عينه الضابط لنا بوصفه نقطة العودة لنا ، كلما انطلقنا بخط مستقيم نحو الهدف الذي نطارده .

هذا ما كان على الضابط أن يقرره . وإن كان مضطرباً ومتلكئاً مثلنا ، إلا أنه كان يغطي خيباته بسرعة كبيرة ، كان

يحاول أن يكون على درجة عالية من ضبط النفس والتماسك، كان يحاول أن يظهر نفسه بمظهر المنتصر، أو على الأقل الذي سيكسب في النهاية المعركة.

التفت مرة أخرى وسأل البدوي منور بصوت راعد:

- أين ذهب بنو جدلة بعد قتل هؤلاء الجنود؟

كان منور الذي يتحدث بالنبرة ذاتها، عند الهجوم وعند الخسارة، تحت الأمطار وتحت الشمس، في المكان وخارج المكان، قال له وقد أشار بيده:

-التفوا إلى اليمين..

سأل الضابط:

- منذ متى فارقوا المكان..؟

قال منور له:

- نصف ساعة..

حينها، قال الضابط:

- إذن نتعقبهم، لا خيار لنا، يجب أن نتعقبهم، أنا لا أعرف الاستسلام، وهذا نسبة لي ليس عدواً، هؤلاء غادرون، هؤلاء جبناء، وليسوا شجعاناً، إذا كان لديهم القليل من الشجاعة فعليهم مواجهتنا...

في الواقع كنا نقاتل أشباحاً، نذهب إليهم ولا نجدهم، نفارق المكان يأتون إليه ويخلفونه فارغاً، بعد أن تركنا فيه جنديين مع معداتهم.

«طيب ماذا نفعل لجنديينا هنا.. نأخذهما معنا للمكان،

أم ندفنهما هنا؟» ، قال محمود من الطبابة للضابط قبل أن نغادر .

قال الضابط :

- نتركهما هنا حتى تأتي الطائرة الهليكوبتر غداً وتحملهما معها .

-٣٠-

كـان الضـابط منذهلاً ، ونحـن أيضـاً ، لـيس ثمـة حـركـة كـشف منطقـية تكشف عن تلك الأشـيـاء الغـامـضـة التي تدور حولنا ، ليس هنالك من سرد واضح ، أو قصة معروفة ، وما من هناك من عقدة بوليسية ، هنالك جريمة نعم . لكنها بالتأكيد ليست تلك الجـريمة الظاهرة التي يسـعى كل واحـد منا بكل عناية للكشف عنها .

كنا منذهلين أمام مجرم مجهول ، أمام زمن ميت ، أمام فراغ لا يمكننا سبره ، وهنالك لحظة محددة من زمن عام ، من زمن ممتد أمام وضع غريب ، كل شيء فيه غامض أو ناقص ، كنا منذهلين أمـام جـريمة لا تقـودنا عـبـر مـتـاهة من الآثار والعلامات إلى مجرم . وكان على الضابط أن ينشىء وصفاً تفصيلياً وموضوعياً للحادثة ، كان عليه أن يضع لائحة بكل شيء ، وأن يكشف عن كل شيء ، ومن ثم يصل إلى المجـرم ، ولكن كانت هنالك فجوة ، فجوة تفصلنا عن الهدف ، هنالك نقطة مظلمة تمنعنا من النظر .

وكان سؤالي الأساس هو :

كيف يمكن أن نكون أمام كل هذا الوضوح في الصحراء ، أمام الشعاع الصافي القائم وراء الأفق ، كما لو كنا أمام لطخة عمياء تمنعنا من الوصول إلى الهدف؟

لقد كنا واقفين ومتجمدين أمام جزيرة غياب صغيرة ، تخفي رهان الجرم وعقدة جريمته .

**

كيف تم استدراجنا إلى هذا المكان؟

من هو هذا البدوي الذي يمسك خيط الحكاية ، ويجعلنا نمر بفضل فطنته وحكمته أمام غموض الصور . فهذا المشهد الذي نعيشه الآن كان قد مر في ذهن شخص ما يجلس الآن على ربوة ، ويضحك منا ، إنه يقودنا عبر صور متعددة تتشكل شيئاً فشيئاً على الأرض ، إنه يقوم بعمل ما عبر تنضيد دقيق للتفاصيل ، للرموز ، للإشارات ليشغلنا بشيء غير مهم .

عند عودتنا رأينا رسماً صغيراً وخطوطاً على الأرض .

رفع الضابط يده أمام هذا الشكل المرسوم بحدوة صدئة على الأرض ، وإنه لا بد أن يكون رمزاً من رموز جساس ، وعند معرفته والكشف عنه سنصل طبعاً إلى مغزاه ومراده .

بفضل شعاع الشمس الحاد ، وميلان الضياء ، كان التخطيط على الأرض ينتظم ويتحرك ، وكان يتحرك كل شيء أمامنا .

سأل الضابط منور عن هذا الشيء . وقف منور أول الأمر

مـفكراً ، ثم هز رأسـه للضـابط أن هذا الرسم على الأرض لا معنى له .

لم يوافق الضابط ، كان ينظر إلى إشارة مرسومة على شكل متواز ، مرسومة بزائدة حديدية مُحمَرة متآكلة من الصدأ ، كأنها بقيا حدوة حصان ، وهنالك حلقتان متساويتان بطول عشرة سنتمترات تقريباً ، تتلامس كل واحدة منهن من جانب .

كان الضابط يفكر بموضوعية شديدة ، لا بد أن يكون هذا النقاء الهندسي المرسوم يحمل إشارة ما ، لا بد أن يكون وصفاً ، أو حركة تقود إلى دليل يجلو هذه العتمة .

الكل تمسك بهذا الشكل الهندسي الذي رسمه جساس على الأرض ، ولم نعلم أن هذا الشكل الهندسي سيشغل كل حديثنا فيما بعد ، وكأنه دافع هوس لبحث جديد ، لقد عرف جساس قيمة هذا الشكل الهندسي الغاطس في الرمل ليلهينا في قيمته ، ويشغلنا عنه ، حيث بدأ كل واحد منا يفسر هذه الرموز الغامضة على هواه ، ويحاول أن يستخرج منها معنى ، أي معنى . وربما أضاف الرعب ذلك الوقت لخيالنا أشياء جديدة ، وصوراً جديدة ، فما يمكنها أن تكون هذه الرموز بالضبط؟

توقفنا على شكل حلقة حولها ، مقتربين ومبتعدين منها ، فلا يمكننا المساس بها أبداً ، كنا خائفين لئلا تختفي لحظة من نظرنا ، أن تسفوها ريح ما وتمحوها ، كان علينا وبالسرعة الممكنة أن نجلوها ، أن نقبض على رمزها ، أو أن نفهمها .

في البداية تخطى الضابط قريباً منها ، قطب حاجبيه وأخذ

يفسرها ، كان يعتقد أنها لا بد أن تكون رمزاً يقودنا إلى مكان مهم ما ، أو تدلنا على هذا المكان ، ولكنه فشل في واقع الأمر في قراءتها ، غير أن محمود هو الذي سأل لم لا تكون هذه الرسوم هي إشارة تهديد .

لحظتها لا أدري كيف ، أصبحت هذه الخطوط تتشكل لي عبر النظر إلى عمودين يكونان حلقة حديد مربعة بينهما . فصرخت بهم فزعاً : «إنها آلة تعذيب» . وصمتّ .

كنت أنظر إليها فتتكون في نظري حلقة التعذيب التي سوف يمرر جساس خلالها ذراعي وساقي واحد منا ، كان خيالي يذهب مباشرة إلى تلك الحلقة المرعبة ، فتنقل عيناي في واقع الأمر هذه الصورة لكي تتثبت القوة والقسوة في ذهني عن طريق النظر المطلق ، أو النظر الساكن على هذا الشكل الهندسي .

كل شيء كان مثيراً للخوف ، وهذا ما جعلني أتصور مشهد التعذيب في الشكل الهندسي المرسوم على الرمل ، أتخيل الرجل الراكع أحدنا ، مقتولاً ورأسه يتدلى في صفيحة ، واثنان يلعبان لعبة جر الحبل بيديه ، وهنالك ما هو أبعد من الحدث كله ، أبعد من الحدث وأقرب إلى الموت من جهة أخرى :

جساس يجلس على الصخرة البعيدة يلوح لنا بيده ، ونحن مرعوبون هناك في تلك الساعة ، في ذلك الحاضر الذي لا يسير أبداً ، كنا في العزلة المفترضة نتخيل عبر فانتازمات

متعددة الشكل المُفترض للتعذيب الذي سيصيبنا .

جساس على الصخرة العالية يلوح ، ويرقص ، ويغير من تعبيرات وجهه بصورة ساخرة ، ونحن ننساق على الطريق الذي يريدنا أن ننحدر فيه ، وهو يترقبنا ، كلما نسير عند منعطف رملي صغير أو عند سن صخري نرى إشارة ترعبنا مرة أخرى ، كنا نسير خائفين محاولين تفسير هذه الرموز الغامضة ، وفنان الرعب يقف في مكانه ، ومن مكانه يطلق ضحكة سخرية عالية .

**

نعم كنا وسط الوضوح ، وسط هذا الصفاء والنقاء الكليين ، نبحث عن صوت ، عن شيء يحوم ، عن ذريعة ، عن صورة خفية ، عن غريب يحوم كشبح هاملت ، هنا وهناك ، ويتحدث لا ندري من أين ، وكأنه يتحدث عبر فواصل الزمن الذي لا يجب عليه ، من ناحية أخرى ، تحطيمها أو تبديلها .

-٣٢-

ثم انطلقنا برحلة دائرية راكضين وسائرين ببنادقنا نحو الطريق من جهة اليمين لنعبر هذه المرة الهضبة الرملية ، ونقطع تلة عالية ، وننحدر إلى الجنوب تقريباً ، ثم دخلنا وادياً ضيقاً ، منخفضاً ، عميقاً ، مغلقاً من جهة الشمال بمرتفعات مظلمة وعارية ، ومظللاً من جهة الغرب بظل من التلال الرملية الحالكة الضخمة ، ومغطى من جهة الشرق بقمة صخرية سوداء ، على بُعد بضع خطوات من هناك تبرزُ صخرة سوداء وعارية ، كانت تطلُّ مثل جسر الموت على وادي المراثي . بعد ذلك صعدنا شقين صخريين ، وإذا بنا نصبح بمواجهة المكان الذي انطلقنا منه ؛ أي مكاننا .

توقفنا نحن الستة ، الضابط والبدوي ونحن الجنود الأربعة من فصيل غارة الصحراء على هذه التلة ، لنرى أن البدو التفوا على رفاقنا من الخلف . . .أي بمعنى آخر : كانوا قد أخذوا الجنديين وذهبوا بهما إلى المرتفع لقتلهما ، وتركونا نتعقبهم ليعودوا مرة أخرى إلى الحراس الذين وضعناهم في المكان .

كان الأمر واضحاً لنا ، ولمنور البدوي كذلك ، ولكن لم

يكن الأمر للضابط الذي شحب لونه لحظتها أمراً ثابتاً ، إذ قال إن القوة التي تركتها في المكان قوة يعتمد عليها ولا بد أنهم اشتبكوا مع العدو ، وقتلوا منهم أحداً ، أو صدُّوا هجوماً عنيفاً عليهم ، وكان المقصود من خطته أنه ترك في المكان واحداً من الإسناد واثنين من القوة المهاجمة ، وهي من الناحية العسكرية كافية للمقاومة والمشاغلة وليس من السهل تصفيتها وإنهاؤها .

فهرولنا كلنا نحو المكان ، غير أننا لم نر آثار معركة مطلقاً ، لقد وجدنا المكان خالياً ، فالقوة المكونة من الثلاثة الذين تركناهم في المكان قد اختفوا بأيدي بني جدلة تماماً ، ولم نر كما قال منور أية آثار لمعركة أو مقاومة ،لقد اختفى هؤلاء الجنود بسرعة كبيرة .

**

«ماذا نفعل؟» ، قلنا بشكل يائس .

قال الضابط : سنتعقب بني جدلة ، سنتعقب جساس هذا اليوم طالما هو هنا في هذا المكان ، فلا بد أنه سيغير علينا أيضاً ، ويجب مباغتته .

غير أننا كنا متعبين تماماً ، وشاعرين بنوع من اليأس ، فلا بد أن مصير هؤلاء الجنود هو مصير الجنديين الآخرين .

كانت الشمس قد أخذت تغيب ، والبرد بدأ يتقدم ، وأخذ التعب واليأس منا مأخذاً كبيراً ، فلم يكن أمامه إلا أن يأمرنا بالبقاء هنا وحراسة بعضنا بعضاً ، ومن ثم الانطلاق في الصباح وراء بني جدلة ، أو انتظار طائرة الهليكوبتر التي ستأتي

لتـقلنا ، فإما أن تقلنا إلى المعـسكر وتنهي مـهـمـتنا ، أو تأتي لنا بتعزيزات لتعقب جساس من آل جدله لقتله هو ومجموعته ، أو أسره .

-٣٣-

وهكذا نهض الضابط من مكانه وفتح دفتراً صغيراً وأخذ يدوِّن : اثنان قتلى ، ودوَّن اسميهما ، وثلاثة مخطوفون ، ودوَّن أسماءهم ، وبقي أربعة ثم دوَّن أسماءنا أيضاً .

جعلنا نتفقد الذخيرة التي معنا ، والماء ، والأرزاق الجافة ، وطلب منا الجلوس والأكل ، ثم أمرنا أن ننهض ، وحاول أن يقوي من معنوياتنا الخائرة .

تنفس الصعداء ، ثم سار في الحجرة طولاً وعرضاً ، وقال لنا :

«قوتنا كافية للقضاء على هؤلاء البدو الأشرار ، هؤلاء قوة صغيرة وغير مدربة ، لقد أوقعتنا بكمينين سخيفين . أنا أعترف ، ولكن لن يفلتوا منا هذه المرة ، صدقوني نحن قوة كافية إذا عرفنا حماية بعضنا البعض وتقيدنا بالأوامر العسكرية ، والضبط» .

ولكن منْ نحن؟ هذا هو السؤال . لقد كنت أنا من قوة المناورة ، ومجيد العارف بكل حركات البدو ، ومحمود من الطبابة ، وجواد الرامي .

لم أكن أفهم كلمات الضابط بسبب أناه التي لا تكون إلا في وضعية متكلفة ، أمر لا يتعلق بمقتل رفاقي فقط ، ولكني شعرت فجأة بضجر وسأم كبيرين من جمله العارية عن الفعل الحاضر ، تلك الجمل التي يتم تقليصها بشكل غير مناسب لتصبح متجاوزة للواقع نحو الافتراض ، كانت جمله ترن في أذني وتزعجني كأنها لازمة .

**

كان وجه النقيب رعد في هذه الساعة بالذات هادئاً هدوء الصحراء ، وقف أمامنا وهو يكش ذبابة من وجهه ، محاولاً السير باستقامة على الرغم من عرج صغير يحاول التغلب عليه بسبب ساقه التي تؤلمه ، كان الحر لزجاً ، وعيناه متعبتين تكادان تغفوان ، كان واعياً كالعادة ولكن هنالك وهناً في الوجه وفي التعبير ، وكانت نظراته خاوية ويائسة ، وهمومه بعد مقتل الرفاق غدت كأنها بلا نهاية .

أما لغة لجنود فقد تغيرت كلياً ، فاللكنة التي كنت مصعوقاً من مقاومتها ، قد اختفت كلياً ، وطاقتهم على الحديث والتي كانت تذهلني فيما مضى أصبحت أشبه بالجنون . مع ذلك كنت أرى فيهم نوعاً من العظمة الخفية ، حتى وإن كانوا بعض الأحيان يفقدون تفاصيل اللياقة الاجتماعية ؛ وكنت أشعر وأنا أتحدث معهم بنوع من التضامن :

قال جواد : سمعت أن البدوي لا يقتل مباشرة إنما هو يعذب الجندي قبل أن يعدمه .

(كان جواد مسخاً مريعاً بالرغم من كل مزاجه المأساوي البسيط ، وإذا تعلق بشيء فإنه يحصل عليه بالقوة ، ويتصرف تصرفات ساذجة وخرقاء ، ويصبح أشبه برجل طفل) .

قال محمود : أحياناً يصب عليه القار ويحرقه .

قال جواد : أنا إذا ما ألقوا القبض علي سأنتحر قبل الوصول .

ثم دار زمن صامت بيننا ، زمن كنا نفكر فيه في ميتة أخرى غير تلك التي تنتظرنا ، وكل واحد منا كان يذهب في خوفه إلى حده الأقصى ، كان يحاول أن يحصل على موت بلا تعذيب ، أن يحصل على موته وهو في شكله المنقح .

-٣٤-

في الواقع لم يكن محمود الذي كان من قوة الإسناد سوى معالج بسيط ، غير أنه كان يتفوه ببعض الكلمات الطبية باللغة الإنكليزية أمام الضباط بفخر ، مثل حشرة تنسج فوق ضحيتها بعض خيوطها ، في البدء كان معروفاً بكذبه ومداهناته ، ولكن فيما بعد أدرك جميع من في الوحدة أن هذا الكذاب كان ذكياً جداً ، وكانت له خبرة في قطع الأعضاء ومعالجتها طوال أيام الحرب . .

إنه رجل أبيض الشعر ، رخو الجسم ، فمه فاغر على الدوام ، وبالرغم من خواتمه الدينية فقد كان يستمني -هكذا يقول جنود الطبابة عنه- وهو يتصفح كتب التشريح التي تعرض بعض النساء العاريات في عمليات شق البطن .

كان يدمدم على الدوام بسكينة غامرة ، يدمدم وهو يأكل ، يشتم وهو يشد تجبير أيدي الجنود الجرحى ، يدمدم بأشياء متعددة ليست أوامر الحرب ومشاغل الجيش بالضرورة منها ، فيمكنك أن تراه وهو يشقُّ جرحاً عميقاً في البطن ، أو يعيد المصارين تحت المعدة وهو يتكلم عن شوربة الأمس الماصخة ، أو

عن مواعيده النسائية في الإجازة .

كان يقلع عين أحد الجرحى في المواقع الخلفية للمعركة وهو يبدل ثيابه الداخلية ، كان يمد يده إلى كيس التمر ليضع واحدة في فمه ، وهو يقوم بتخييط يد قد خلعت من الكتف ، كان يسحل أحد الجنود من قدمه وهو ذاهب ليبول حينما يرى نظرته الكامدة الميتة ، كان يحكي لزميله نكتة ويضحك وهو يبتر ساقين ممزقتين بسبب لغم ، والدم يعلق بيديه إلى المرفقين . وبين رائحة عفن الأعضاء المبتورة ورائحة الكلوروفورم يدخن أو يقضم بسكويتة تحت أسنانه .

أحياناً تشاهد السكين في يده يبضع بها ، ثم يرمي الذراع المبتورة في سلة معدنية في الركن ، فلا تسمع غير صرخة الجندي الجريح ، وصوت الذراع بجدار المعدن .

**

أما جواد الرامي فقد كان طويلاً نحيلاً شديد السمرة ، يتحرك خفيفاً مثل رياضي ، سرواله الخاكي نظيف ومكوي ، وياقته نظيفة ، شعره مفروق ، كان معروفاً بدقة تصويبه ، وكان واحداً من أمهر الرماة في الكتيبة ، وكان يسير متبختراً ، ضاحكاً على الدوام ، في قدمه اليمنى قليل من العرج ، لكنه غير مشلول وكان سريعاً في المشي وفي الركض ، وحاضر البديهة على الدوام .

يقول له محمود المعالج :

– هل تستطيع أن تسقط ذلك الطير . . ويشير إلى طائر

الغاق الذي يقطع الصحراء من فوق المرتفع الأبيض البعيد نسبياً عن الموقع الذي كنا فيه .

ينظر إليه بعينين ساخرتين ويقول وهو واثق من نفسه ، خفيف الظل ، ممتلئاً بالحماسة :

- صدقني أستطيع أن أصيب ذرقه أيضاً .

-٣٥-

طيب ، ولكن من هم في الجهة المقابلة؟

إنه جساس وبنو جدلة . . وهذا ما كان يجعلني ذلك اليوم أعيش واحدة من أغرب اللحظات والمفارقات ، في الصحراء الغربية من العراق ، والتي كنت وطئتها للمرة الأولى .

ماذا يريد جساس بحركاته ومغامراته؟

هل يريد تجسيد أسطورة في الصحراء ، هل يبحث عن بطولة يعرف بها بين البدو؟ هل يبحث عن مغامرة تجدد الجوهر السري للبطولة بسبب جرأتها ونقائها ، ولكن ما معنى البطولة هنا بين الرمال والصخور والأشجار العجفاء؟

نحن نبحث في المدينة عن رموز ، عن كثير من الأيقونات ، عن أبطال ، عن الكثير من الآمال المبعثرة والتي نتشبث بها بقوة ، تحتاج المدينة إلى رموز لتجسيدها ، إلى قادة ، إلى عظماء ، لكن هل تحتاج الصحراء ، وهي بتقشفها وتجردها ، إلى كل هذه المغامرات .

الصحراء لا تحتاج إلا إلى مخربين سعداء ، فالرمال والماء والفضاء تصنع وحدها نوعاً من التوتر الحميم والبشوش ، هدفها

الوحيد هو روحانية لا تنقطع أبداً ، تصنع نوعاً من الرغبة المستديمة بالبقاء فقط بعيداً عن المنافسة المزعجة في المدينة التي تخلق من البطولة ضجيجها وصخبها ، وربما لم يكن لجساس ولا لأي واحد من بني جدلة قصة بطولة خارقة ليراه بها الآخرون ، إنه يتسلى وحسب ، أو هو يدافع عن نفسه فقط . إنهم يعيشون بلا مرآة ، هذه المرآة التي نرى فيها أنفسنا كل اليوم ، ونتمظهر أمامها ، ونعدل من قيافتنا فيها ، ونغير من شكلنا وأزيائنا تبعاً لها ، نحن في الحقيقة آخر ، نحن نرى أنفسنا بعيون أخرى ، حينما ننظر في المرآة لسنا نحن من ننظر أنفسنا ، إنما نجعل أنفسنا محل الآخرين في النظرة إلينا ، وهكذا نبحث كل يوم عن منافسات عديدة بدءاً من الملبس والشكل والهندام ، وانتهاء بالوظيفة والحياة والمنصب .

أما في هذا الطرف القصي من الهاوية ، والتي كنا جميعاً فوقها ، نشهد من الحوادث ما سيدوم بالنسبة لنا لأننا من المدينة ، ولكنه ما سيتلاشى بالنسبة لهم لأنهم من الصحراء ، فستكون هذه اللحظات أكثر الساعات رسوخاً في ذاكرتنا ، بينما هم لا تساورهم هذه الأفكار مطلقاً .

-٣٦-

جلسنا على الأرضية وقد نصبنا خيمة في المكان لتقينا البرد في الليل وتصبح نومتنا مريحة ، ثم وزع الضابط الواجبات علينا بعد أن فتح دفتره ، ودون فيه تقسيم الواجبات ، ثم أمر محمود وجواد بإجراء دورية على المكان المحيط بنا لتفقُّده ، ثم أمر بالحراسات مباشرة .

وبعد دقائق عاد الجنديان ليقولا لنا الخبر الصاعقة ، فقد عثرا على الجنود المخطوفين الثلاثة مقتولين ومرميين بالقرب من حجر صخري قريب منا ، فتناولنا أسلحتنا وهرعنا في الحال ، وتوقفنا أمام جب صغير ، كنا مطأطئي الرؤوس ، مثقلين بألف من الهموم القاسية ، بشيء من الهزيمة والانكسار ، وقد لمحنا عند أقدام واد محفور في شكل حوض من التراب جنودنا الثلاثة مقتولين .

بقينا ساكنين ، ثم جاء محمود من الطبابة لفحصهم ، وعاد ليقول لنا إنهم قُتلوا بطريقة شنيعة ، لقد ذُبحوا بالسكين ، ورُموا هناك واحداً فوق الآخر في الجب .

تفقدهم الضابط وعاد ليأخذ قماش خيمة ويغطيهم ، ومن

ثم استدار بحركته الرشيقة ليكتب في دفتره أنه عثر على المخطوفين وكانوا مقتولين ، ثم دون في دفتره الصغير الذي يضعه في جيب بنطلونه الجانبي رتبهم وأسماءهم وساعة قتلهم والطريقة كذلك ، قال لأنه حينما سيعود إلى القاعدة سيُطلب منه أن يكتب تقريراً بكل ما دار .

**

كل واحد كان يدون حسب وظيفته وتكوينه ، كما أني كنت ألحظ فارقاً كبيراً بين هاتين الوظيفتين ، الوظيفة الاستدلالية للضابط ، والوظيفة التوصيفية للمعالج الطبي ، ولحظتها اكتشفت وأنا أسمع الاثنين وهما يدونان فارقاً كبيراً من زاوية نظر هذه التوصيفات ، ولا سيما فيما يتعلق بدوريهما وقيمتيهما . فملاحظات الضابط تتلازم مع شح واقتصاد في الكلمات وخبرة أكثر عمقاً ، لكنها تحتفظ مع ذلك باستقلالية نسبية ، فالأموات هم أشكال تجريدية موضوعة وكائنة بعيداً عن عنصر الإثارة ، في حين أن الأمر نسبة لمحمود مختلف جداً ، هنالك في لغته فحش أكبر ، بل تصبح الجثة بكل ما فيها من دم وبراز حاضرة عبر اللغة ، حاضرة عبر كلمات مهددة ، وتوصيفات دقيقة لم تكن على الإطلاق ضرورية .

كان علي لحظتها ولسبب لا أدريه ، تقديم ثناء من نوع ما لتدوين هذا الضابط واقتصار لغته على الكلمات الدقيقة والتجريدية ، كان علي تقديم ثناء ما لحشمته الاستثنائية ، فليس هنالك ما يمكنني الاعتراض عليه ، ولكن حين بدأ

المعـــالج الطبي بكتـــابة وتدوين تقـــريره لا أدري أي شـــعــور بالاختناق والقلق الذي ظهر عليّ فجأة من هذه اللغة التي لا تمر إلا عبر تخيلاته السادية ، باعتبارها واحدة من العادات الوطنية ، فالموت هنا هو نوع من الألعاب الفلكلورية ، والكلام بهذه الطريقة العنيفة يخضع ، لا أدري كيف ، لضرورات أخلاقية واجتماعية .

-٣٧-

كان هنالك نوع من الصراع الخفي لا بين الضابط والطبيعة فقط ، أو بين الضابط ومنور وهو صراع واضح أيضاً ، إنما كان هنالك صراع خفي بين الضابط والمعالج الطبي ، لا يظهر هذا الصراع عن طريق المواقف أبداً ، إنما يظهر بسهولة أثناء كتابة التقارير العسكرية والطبية عن حالات القتلى من فصيلنا .

يظهر هذا الخلاف في لغتي كل من الضابط والمعالج الطبي ، ولو قرأنا التقارير لوجدنا شيئاً من السخرية الجانبية في تقرير المعالج الطبي للضابط ، ومع أن تقرير الضابط لا يبدو عليه تقرير رجل مُهان بطرق مختلفة ، إلا أنه يظهر مدحوراً في تقرير المعالج الطبي الذي يقدم الجزء الأكبر من عمله بصورة سادية ، مبرراً هذه السادية بدوافع متنوعة ، أو بحكم متطلبات المواقف الحتمية والمُمزقة ، لقد كان المعالج الطبي ثراً في لغته ، وصّافاً بارعاً ، كان كاتباً ملعوناً ، بل كان مؤلفاً يُحتفل به ويثنى عليه ، فحتى الجانب السادي فيه ، والذي لا يمكن نكرانه ، كان بمقدوره الظهور وكأنه تعبير عن الفلكلور المحلي ، والروح العراقية العنيفة .

**

كان المعالج الطبي يقدم صورة واضحة عن عمله ، ومع أن هذه التفصيلات تعيد للدافع السادي كل دقته ونقائه الأوليّين ، إلا أن توصيفات الضابط التي تحمل دمغة الحشمة تظل مدحورة أمام هذه الجثث الناقعة والجلد المسلوخ ، والتي تعلن عن مقدار انهزام الضابط وفشل عمله . وكان الضابط يدرك تأثير هذه التقارير الطبية التي يكتبها المعالج ، لا من جهة زحزحة موقفه أو لغة تقاريره فقط ، إنما لأنها تقودنا إلى السؤال التالي : لمَ تنطو الوظيفة الاستدلالية في لغة محمود على توصيفات فاضحة ، فيما يبدو تقرير الضابط وكأنه يقصيها ، أو على الأقل لا يتضمنها جوهرياً؟

هكذا هو الأمر برمته ، من يمكنه أن يرى موت الآخرين ولا يفكر بموته؟

إنه موتنا الذي انتظرناه منذ زمن بعيد ، ماذا يعني الموت بالنسبة لجنود صغار السن مثلنا غير مشهد الجثة المعلقة على الطريق ، حيث تكون الساقان مفتوحتين ، والفم فاغراً؟

كانت هذه الحركة هي التي تقدم للحظة ما صورة للموت ، هذه الصورة التي لا نراها في المدينة ، ولكن الطبيعة تقدمها لنا كأنها جزء من المرئي ذاته ، كأنها جزء من الحياة ، فنحن نراها بغية أن تكون جزءاً من الطبيعة ، بغية أن تكون طيفاً خفيفاً للوضوح ، حيث يصبح الزمن مُبعثراً بسبب كارثة مرئية ، كارثة تحدث هنا وهناك ، كارثة تترك من ورائها قطعاً من الإشارات تظهر عبر الحاضر ، أو تدخل بتواصل حر مع الماضي .

إنه الموت الذي نراه تلك اللحظة ، وهو يتقدم ليصبح خلف كل شيء ، ووراء كل شيء ، إنه تحت وجه كل واحد منا ، بل إنه يتنضد ما بين جملتين ، ما بين مقطعين ، إنه موتنا الذي يتراءى لنا ذلك اليوم في الطبيعة مثل شيء شفاف ، بل يصبح

واضحاً وبارداً وكأنما يمكننا من خلاله رؤية كل شيء ؛ إنه من الدقة والوضوح بحيث يجعلنا نراه مثل فراغ ، حيث يصبح كل شيء في هذه الطبيعة اللامتناهية شفافاً ، كما لو أننا في زمن الحلم ، الموت المتذكر في ميتات كثيرات لا تكف جميعها عن التحول ضمن الحضور المُشع للطبيعة ، وهذا المحل المحض للمرئي الذي يطوقنا .

-٣٩-

عندما حلّ الليل أصبحت الحراسة من مهمتي ، فتوقفت عند السياج المهدوم أنظر في سواد الليل متوجساً بأذني ، محاولاً سماع أية حركة ، وحينما كان الهواء يهب أشعر به نقياً بارداً ، وحينما يستكين كنت أشعر بالرمال وقد حافظت على لونها الحار الأصهب ذي النعومة الرائعة .

كانت الظلمة تشكل لي ألوانا متعددة من الأزرق والأسود والأحمر القاتم ، ومن بعيد أحسست بأن بني جدلة الآن ليسوا بعيدين عنا ، شعرت بإبلهم المربوطة فوق الأحراش مثل باقات من البقع القاتمة ، كنت أشعر بهم وهم جالسون حلقة حول نيرانهم ، وألسنة اللهب تتصاعد مضيئة ، والدخان الأبيض المثقل بالعطور يرتجف ببطء وهو يتصاعد نحو القبة الزرقاء المسودة ، كانوا جالسين هناك ويمر على وجوههم ضياء النجوم مائلاً ، وتتلألأ مجاميع الكواكب كما لو أنها تقترب من الأرض ، أو تتجلى من خلال مرايا مكبرة ، كنت سمعت في تلك اللحظة صوت غناء وصوتاً مبحوحاً يأتي خافتاً ، إنها موسيقى لا عمر لها ، كتلك التي كان يؤديها حتماً الرعاة السومريون هنا ، والتي كانت ترتعش مترددة واهنة في صمت كبير .

-٤٠-

بعد أن أنهيت مناوبتي في حراسة المجموعة عدت إلى الخيمة التي نصبت وسط البناء المهدوم . لم تكن الخيمة عالية غير أنها نصبت على أرضية مستوية وفرشت ببطانيات ، ومن ثم جاء كل واحد من الموجودين واتخذ لنفسه مكاناً هناك . ولم يكن الأمر اعتباطياً مطلقاً فقد حددت الأماكن وبصورة تلقائية حسب الرتبة ، ومع أن منور كان قد جاء ، ونام عند الباب مباشرة دون اعتبار للرتب أو لهذه الأشياء التي لا يفهمها البدوي ، فإن الضابط قد اتخذ لنفسه مكاناً في طرف الخيمة ، مكاناً أعلى من الباقين ، شبه معزول ، وهذا المكان نسبة له لا يرمز فقط للتميز والعزل والفصل عن الباقين ، ولكن لممارسة السلطة أيضاً ، وبالنسبة لنا فإن الأمر في هذه الحدود مقبول ، لكنه عند منور البدوي مختلف تماماً ، فقد جاء دون أن ينظر لأحدٍ في الخيمة ، دون أن يدخل ويوزع ابتسامات على هذا وذاك ، إنما دخل دون أن ينظر إلى أحد ، ثم اضطجع مباشرة على فرشة صوفية مرمية على الأرض بعد أن لف نفسه ببطانية صوفية واحدة ، وغط في نوم عميق .

أما نحن فقد حُدِّدت أماكننا حسب أقدميتنا في الخدمة العسكرية ، حتى أصبح مكاني في طرف الخيمة ، الطرف الذي يرتفع أحياناً ، فيهب عليَّ الهواء البارد ويجمدني ، فأعود لأنزله وأضع عليه بعض حاجياتي كي لا يرتفع مرة أخرى ، ومع أن ارتفاع طرف الخيمة وهبوطه كان يخفف من رائحة جوارب الجنود في الخيمة ولكن الأمر ظلَّ مرهقاً نسبة لي ، وجعل نومي قلقاً ومتقطعاً رغم التعب الذي هدني في الليلة الفائتة ، أما بالنسبة لرفاقي الجنود الآخرين فكانوا يتناوبون على حراسة المكان ، معي بطبيعة الأمر ، وكل ساعتين كان يستيقظ واحد ويحمل بندقيته ويبدأ بالدوران حول البناية المهدمة ، أما الباقون فينامون داخل الخيمة .

**

بعد أن انتهت نوبة حراستي عدت إلى الخيمة ، وكانت هذه النوبة تتوسط نوبتين ، نوبة جواد ونوبة محمود ، أي كان محمود المعالج في الطبابة هو الذي خلفني ، وذكرت له أن بني جدلة على مقربة منا ، وأن تلك النار التي يسطع نورها في الظلام الدامس هي نار كوانينهم ، وذلك الأبيض الصاعد إلى أعلى ، ويبين تحت نور الكواكب الملتهبة هو دخانهم ، وأن هذه الأصوات القادمة إلينا ، أصوات الليل ، هي أصواتهم ، ومع أني لم أكن قادراً على تمييز ملامح وجهه في الظلام ، أو أعرف فيما إذا كان قد ارتعب أم لا ، إلا أنني شعرت بيديه ترتجفان وهو يمسك بندقيته ، وأخذت أسنانه تصطك ، وبطنه تقرقر ، ومع أنه

تعلل بأن الجو باردٌ جداً في الخارج، وأنه خرج من الخيمة الدافئة إلى هذا المكان المثلج فلم يعد يسيطر على نفسه، وقال إن حرارته قد تكون مرتفعة، وأنه محموم، ربما بسبب عاصفة الظهيرة الماضية، إلا أن هذا التلكؤ والتردد والاضطراب جعلني، أو على الأقل نبهني إلى أن الأمر أكبر من أن يُسكت عليه، أو ربما شعرت بأن الأمر لن يكون آمناً مطلقاً، على نفسي على الأقل، فمحمود قد ارتعب حقيقةً وواقعاً، ومن التجربة أعرف أن المرعوب يسقط بسهولة في أيدي هؤلاء البدو الشجعان، وبالتالي -بالنسبة لي على الأقل- كيف يمكنني أن أنام مرتاحاً، ما دام الذي يحرسني على هذه الدرجة من الخوف؟

-٤١-

حين عدت إلى الخيمة ، قررت إبلاغ الضابط بالأمر ، عله يقوي الحراسة علينا ، ويجعلنا اثنين اثنين ، أو يأمرنا بملاحقة الأعداء بدلاً من تركنا بأيديهم ، على الأقل نحن الذين نقرر الهجوم ، لا نستسلم للموقف أو نصبح سلبيين ، وندعهم هم الذين يقررون الهجوم علينا وقتما يشاءون .

حين عدت إلى الخيمة ، كنت تخطيت منور البدوي ودخلت إلى الداخل ، كان هنالك فانوس على الدرجة الواطئة معلقاً على العمود القصير الذي يحمل الخيمة إلى أعلى ، رفعت درجة ضوء الفانوس قليلاً ، فارتمى نوره الأصفر المحمر على الأشياء الموجودة داخل الخيمة ، توهجت ألوان البسط والبطانيات مع ألوان الكاكي الموجودة أيضاً في كل مكان ، هنالك نوع من تلاحم هذه الألوان البدوية مع الألوان العسكرية على الرغم من تناقضاتهما .

**

وبسبب سقف الخيمة الواطئ ، طأطأت رأسي وتخطيت النائمين حتى وصلت إلى مكان الضابط الذي عزل نفسه

داخل الخيمة عنا بناموسية شدها من الأعلى ، وهبطت شفافة إلى الأسفل ، فأصبح داخل الخيمة وهو في الوقت ذاته معزول عن الآخرين ، أي بمعنى آخر كان الضابط يمارس السلطة ولكن من خلف جدار خفيف .

حين وصلت له كان يغط بنوم عميق ، وكان يشخر أيضاً ، فمددت يدي نحوه متردداً أول الأمر ، ثم نغزته بيدي مرة ومرتين ففز مرعوباً من نومه :

- ها ها ها . .

- سيدي ، قلت له ، شفت كانون بني جدلة منصوباً على المرتفع العالي ، وآني كنت في الحراسة وسمعت أصواتهم وهم يحكون . .

فنهض من مكانه بسرعة كبيرة ، وقف على قدميه أول الأمر فكان السقف واطئاً ، أناخ برأسه قليلاً وأخذ يعدل قيافته ، ويتأكد من مسدسه إلى جنبه ، ومن ثم عدل من رتبتيه على الكتفين ، ومشط شعره بيديه بسرعة ، وارتدى البيرية ، وتناول بندقيته ، وهرع معي راكضاً إلى الخارج ، ففسحت له المجال ليتقدمني من الخيمة ، وتخطينا منور البدوي الذي لا يعرف عن هذه المراتبية شيئاً ، وكان منطرحاً على الأرض غير عابئ بهذا العالم الذي يمور حوله ، وخرجنا من الخيمة سريعاً راكضين نحو السياج من الجهة الشرقية ، فلفحنا الهواء البارد بقوته ، برد ليل الصحراء الجاف والقاسي في الوقت ذاته .

كان محمود واقفاً أمام الجدار نصف المحطم ، وحين رآنا نقف هناك ونتطلع إلى مصدر الصوت ، التحق بنا ووقف معنا عند المدخل ، وأخذت أنظارنا تشخص نحو المرتفع العالي ، حيث يرتسم من هناك لهب الكوانين والدخان الأبيض وهو يرتفع إلى الأعلى ، التفت الضابط لي وقال :

- روح صَيِّحْ منور . .قل له تعال . .خلي يفسر لنا فيما إذا كانت هذه النار هي نار جساس وبني جدلة لو هَذُولَهَ بدو آخرين . .

فركضت نحو الخيمة ، ما إن رفعت طرف باب الخيمة حتى ظهر لي منور منطرحاً عند الباب . فأيقظته ، لا أعتقد أنه كان نائماً ، بل شعرت به بأنه يقظاً وكان يسمع كل ما يدور ، أو هو ينام بحذر مثل القطط عين مفتوحة وعين مغمضة ، أو على الأقل لم يفز ، ولم يرتعب ، ولم ينبهر ، ولم يكن في وجهه أي انفعال ، ما إن وضعت يدي على كتفه ، وقبل أن أقول له أي شيء ، حتى نهض من مكانه وتقدم بخطوات ، بعد أن لف اليشماغ على وجهه ، ومن ثم بخطوات سريعة وواثقة ورشيقة مثل وشق وصل عند الضابط ، ورفع رأسه إلى الأعلى .

-٤٢-

من بعيد كان اللهب يأتلق في ظلام الليل الدامس ، وهنالك أصوات متعددة خفيضة قادمة من أعلى المرتفع الذي يشرف على المكان الذي كنا فيه ، كانوا قريبين منا ، مسيرة عشر دقائق ويحلون ضيوفاً علينا ، لم يرعبهم منا شيء ، لم يهربوا مخلين لنا الأرض التي احتلها الضابط ذلك اليوم ، غير آبهين بأسلحتنا وطائرتنا الهليكوبتر وبرتبنا وتراتبنا ، غير آبهين للمكان الذي أصبح ملكنا ما إن حللنا فيه .

التفت الضابط إلى منور البدوي الذي لم يظهر منه من خلف اليشماغ سوى أنفه الطويل ، وعينيه السوداوين الحادتي النظرات . وسأله فيما إذا كانوا بنو جدلة على مقربة منا .

- إيه ، هذا صوت جساس . .

- كم صوت تسمع؟ قال الضابط .

-خمسة . .

فانفجر الضابط غاضباً :

- أنت تقول خمسة . . كلما سألناك قلتَ لنا خمسة . .

- خمسة . قال منور بهدوء . .

- بس أنا عـرفت من البـارحـة لما سـألناك عن عـدد الآثار اللي تتبـعـهـا ، قلت خـمـسـة . . في حين أنهم يصـيـرون مع الجنديين سبعة . .

- ثلاثة لبني جدلة والجنديين خمسة . .

- وأين الاثنان الباقيان؟

- هنالك اثنان من بني جدلة يتصنطون على مكانكم . .

- يتصنطون؟ قال الضابط .

قال المخابر : يعني يراقبونكم . .

انفجر الضابط : ليش ما قلت لنا!

- لأنك ما سألتني!

صاح الضابط بقوة : لو غيري كان حكمك بالإعدام بتهمة الخيانة العظمى . .

-٤٣-

لم يكن الأمر يعني منور كثيراً ، أقصد هذا الصخب الذي أداره الضابط والمحاكمة لم تكن تعنيه كثيراً ، ولم يفهم منها شيئاً ، وقد تعامل معها بلا مبالاة ولا اكتراث كبيرين ، بل بقي جامداً ينظر إليه دون أن تطرف له عين ، وفي الواقع أن الضابط ربما شك بمنور ، بأنه باعنا إلى بني جدلة ، على الرغم من أنه من بني جابر المعروفين بتعاونهم مع الحكومة ، وتواطئهم مع الدولة المركزية ، سواء في السيطرة على عشائر وقبائل المنطقة الغربية ، أم في العمل كمصدر للمعلومات داخل الدول المجاورة ، ولكن لعلَّ لجساس قدرة أيضاً على شراء الجواسيس .

ولكن لماذا لم يصدر الضابط أمراً حيالَ منور؟ كان يمكنه ببساطة أن يرفع مسدسه ويطلق الرصاص على رأسه ، وهذا الأمر بسيط جداً لضابط في الحرب لا يتوانى عن تنفيذ مثل هذه الأحكام بمجرد أن يشم رائحة خيانة ، أو يشعر بأن أمراً غير طبيعي يحدث في هذا المكان .

في الواقع كان الضابط محتاراً ، ولم يعرف كيف يتصرف تلك اللحظة . فهو من الناحية العملية ضابط شجاع جداً ، ولا

تنقصه المبادرة ولا الحماسة ولا الإقدام ، وهو معروف جيداً بانضباطه العسكري ، ودفاعه عن شرق البصرة في الحرب العراقية الإيرانية حتى حصل على العديد من أنواط الشجاعة ، ولكنه كان يشعر بخيانة من نوع ما من منور ، ربما لم تكن الخيانة وحدها السبب في خسارته لجنوده ، وخسارته لهذه المعركة - مع أن أنه لم يستسلم حتى الآن لنتائجها- ربما كانت خسارته للمعركة بسبب طبيعة وأساليب الحرب التي يخوضها البدو ضده ، ونمط التحديات التي يطرحونها على الأرض ، والتي لم يعرف كيفية التعامل معها ، أو التصرف بحنكة وعملياتية إزاءها .

وما إن انسحب منور من المكان ، وذهب إلى الخيمة ، وشعر بأنه انطرح على الأرضية ولف رأسه باليشماغ ، حتى شاورنا الضابط ، وقال هامساً :

- عليكم بمراقبته . . يقصد منور .

ثم اقترب منا كثيراً وقال :

- غير ممكن تتبع أصوات بني جدلة الآن ، ولا تعقبهم في هذه الساعة من الليل ، سنستيقظ مع أول خيط للشمس ونتعقبهم . . .

ثم سكت قليلاً ونظر بعيني ، وعيني محمود ، وهمس بصوت خفيض جداً :

- راح نربط منور في الخيمة . . ونخرج لنتعقب بني جدلة . . إن عادوا من ورائنا وعملوا التفافاً كما في المرة السابقة

فسيجدونه هو في مكاننا ..

ثم سكت قليلاً وقال :

- إذا أطلقوه فهو من جماعتهم ، إذا قتلوه ، فدمه بدل من دم واحد من جماعتنا ..

ثم شرح لنا بهدوء خطته الجديدة ، قال سنترك هذا الخائن في الخيمة ، وأضع على مرتفع عال اثنين منكم للرصد ، وآخذ اثنين للهجوم بهما على بني جدلة ..

-٤٤-

عرفت لحظتها كم كان هذا الضابط متعلقاً بالمكان ، إنه لا يستطيع مفارقته ، لا يستطيع أن يترك هذا المكان ويتخلى عنه بعد أن احتله ، فهو نسبة له مكانه ، وكان يعرف أن أي شخص يتركه في هذا المكان سيذبح ، وبالتالي قام بهذه الخطوة التي تؤمن له فكرتين من أفكاره ، فكرة «مكاننا» ، والـ«نا» هنا مهمة بالنسبة له ، والتخلص من منور أو كشف أمره ، لأنه ليس «منا» ، والـ«نا» هنا أيضا مهمة نسبة له ، وللبدو على حد سواء .

**

الجميع كان مثاراً بفكرة الشر ، فكرة نفي الآخر ، مع أن نفي الآخر هو نفي الأنا بسبب الطبيعة المشتركة للاثنين لكن الوهم يتعمق بوجود الآخر ، ويبدأ الوعي برحلته الهذيانية ، يبدأ العقل بإلصاق الجريمة بالآخر ، ويلصق به جميع الأفعال الشيطانية ، وفي الحقيقة أن كل هذا الهذيان والفانطازمات كائنة من أجل تبرير فعل العنف الذي يشتهيه البشر ، والذي يقود هنا التجربة برمتها .

فمن أجل الحفاظ على السلطة كان النقيب رعد يذهب إلى المطلق المحض ، حتى لو أدى ذلك إلى تجاوز القوانين كلها ، فالسلطة تحرر الشخص من القانون ، وتحرره من الحاجات الأخلاقية برمتها ، ولذا فإن تنازع السلطات في الصحراء كان يخضع إلى نوع من السلب المحض ، فيذهب الطرفان إلى عمق سحيق لا قرار له ، وإلى هذيان أصلي ، وإلى عدم أولي تصبح فيه الأجساد هائجة وممزقة .

كانت فكرة السيطرة تؤدي بالطرفين إلى نوع من الهذيان وهو هذيان العقل ذاته ، والجريمة تبدأ من وجهة نظري من حد بلوغ فكرة الهذيان ، فالعنصر الشخصي عند البدوي هو الذي يجسد القوة المنحرفة ، ويشارك الضابط هنا فيها ، بل ينتج أفعالاً عنيفة تُحاكيها ؛ ومن جهة أخرى يحاول أن لا يجعل لهذا العنف طابعاً شخصياً ، هو يقول :

-ما عندنا عداوة مع جساس ولا غيره . .احنا هنا من أجل حفظ القانون وضبط النظام . .

ففي الوقت الذي ينكر الضابط الطابع الشخصي للعنف العسكري ، يثبت البدوي أناه الخاصة ، ويجعل من التمرد مواءمة مع حالة التدمير التي تخضعه لها الطبيعة .

**

على الرغم من انطباعاتي المتلكئة ذلك الوقت ، على الرغم من الخوف والفزع ، وانتظار يوم جديد لا نعرف ماذا يخبئ لنا ، إلا أنني كنت أحمل مع ذلك أثراً من الصحراء ، شيئاً من

الإغـراء الذي لا يقـاوم ، فلسـفـة وثنيـة تعـيـدنا إلى مـا قـبل الديانات ، كنت أنطرح على الأرض وأصيخ السمع إلى الجنود وهم يستخدمون اللغة استخدامات شتى ، ليس فيها أي تقشف من تقشف البدو ، أو تجرد الصحراء ، أو تلك اللغة المتكثفة الملمومة على نفسها ، كان حديث الجنود في الليل بسبب الخوف متعثراً ، ففي الليل ثمة أفكار معتمة ، مخاوف ، قلق ، وفي كل صوت يظهر الموت مروعاً أبعد من حدود قبول حتميته ، ذلك أن المخيلة فاشية دوماً ، وتحبط على الدوام أي أمل بحدوث معجزة .

وكان كل واحد منا ذلك اليوم ينفي عن نفسه الخوف عبر اصطناع صورة منقحة عن موته ، وهي أسوأ الساعات ، ذلك أننا كنا نشهد احتضارنا ونحن أحياء ، فنلجأ إلى صورة للموت تجد لنفسها معنى آخر غير تلك التي رأيناها لرفاقنا ، وهكذا يصبح سلاحنا واستراتيجيتنا الوحيدة هي لا مواجهة اندحار حياتنا ، فهذا الأمر يصبح مقبولاً مع العتبة الأولى من القتل ، ولكن اصطناع موت رمزي يدفعنا إلى حد الافتراض بما يتجاوز واقعة الموت ذاتها ، وهكذا فإن كل العمليات اللاحقة لم تعد سوى إجراء طقسي لشرف الموت الذي لا نعرف حقيقته أبداً .

-٤٥-

حينما أتذكر مشهد القتلى من رفاقي أفكر بنوعية العنف الذي شاهدناه هذا اليوم ، فمن دون شك ، أن هذا العنف لا ينتمي إلى عنفنا ، لا أدري لماذا كنت أنظر إليه بصورة مختلفة ، كنت أنظره بوصفه عنف الطبيعة وحدها مفصولاً عن عنف الثقافة ، إنه ذلك القادم من البرية بريئاً ونقياً مثل عاصفة ، مثل نسر ، مثل زلزال ، مثل حيوان كاسر يدافع عن نفسه ، إنه يندفع بقوة في عمق ذلك الفصل الحاد والمختلط بين ما هو مدجن وما هو بري ، بين ما هو متمدن وما هو وحشي ، إنه يندفع بقوة ، بعنف ، ونحن نراه مشدوهين وهو يتشكل ببطء ، يتشكل عبر حركات بطيئة متلاحقة ، قبل اللحظة الذي يكتمل فيها الشر ، قبل أن يكتمل الشر وهو يرسم المشهد برمته ، ويسيطر على وجودنا .

إنه مشهد العنف الذي لمحناه أو تخيلناه ، مشهد العنف الذي رأيناه في الإشارات الهندسية المرسومة على الرمل ، أو الرمز الذي حاولنا قراءته في الإشارات البيض التي عثرنا عليها في المضيق الحجري ، أو مشهد النار التي رمقناها وهي تتصاعد

إلى أعلى فوق الجبل .

**

عدت إلى الخيمة ، عدت إلى مكاني في الطرف القصي كي أنطرح هناك ، وأنام عند ذيل الخيمة الذي يرتفع كلما هبت نسمة من الهواء . وما إن نمت ساعة حتى أيقظتني ضجة خافتة ، فنهضت مستنداً على مرفقي ، ونظرت حولي . كانت إحدى ستائر الخيمة مرفوعة فدخل منها نسيم الليل ، كان القمر يضيء الداخل تماماً ، ورأيت ابن آوى ضخماً وهو يدخل بحذر وينظر صوبي بعينين من نار ، أمسكت بندقيتي فأرعبته بحركتي فهرب مسرعاً ، وعدت إلى نومي ، ثم استيقظت مرة ثانية ، فأحسست أن منور قام بهدوء ليخرج من الخيمة ، وسمعته يتكلم مع الحرس ، أي الذي أناب محمود ولا يعرف عن خطة الضابط شيئاً ، ولم يكن يعرف أن الضابط أمرنا بمراقبة منور ومعرفة حركاته ، بل لم يكن يعرف حتى أن الضابط كان يشك بمنور أنه باعنا لبني جدلة .

-٤٦-

خرجت من الخيمة وراءه ، وذهبت إلى الحرس راكضاً ، وسألته :

- جواد .. وين راح منور؟

أشار لي بيده نحو الجهة الشرقية وقال :

- راح من هناك .. ليش تسأل؟

- شقال لك وين رايح؟

- راح يقضي حاجته .. ليش ..؟

حملت سلاحي وهرعت باتجاه الشرق ، كانت نجوم أول الفجر مضيئة ، وزرقة الفضاء تذوب شيئاً فشيئاً تحت انبلاج الصباح .

كنت رأيته وقد تجاوز التلة القريبة منا فصعدتها راكضاً وراءه .

قلت في نفسي : لو كان أراد أن يقضي حاجته فلا بد له أن يقضيها وراء هذه التلة الرملية .. لا أن يذهب أبعد منها ..

أخذت أطأطئ رأسي متخذاً وضع التخفي والمباغتة ، واللحاق به ، غير أني شاهدت بعد ذلك خياله وهو يبتعد

أكثر ، بل تجاوز تلة أخرى بمسيرة أسرع من السابق ، وفي الطريق صادفت ابن آوى وهو يبحث بأنفه في ثنايا ملابس مرمية ، كانت ملابس بدوي آخر ، من الواضح أنها ملابس منور ، كان وضعها على مقربة ليرتديها عند هروبه منا ، ولكنه شعر بوجودي وراءه فلم يلتقطها .

لحظتها أطلقت ساقي وراءه ، وما إن صعدت التلة الرملية حتى بان رأسه وراء الرمال الحمراء ، فعرفت أنه هارب ، كان قد أطلق ساقيه هارباً وبسرعة كبيرة ، كان يركض مثل السهم منطلقاً فوق الرّمال ، وليس هنالك وراءه سوى تناثر الرمال في الهواء من قدميه الحافيتين السريعتين .

لقد عرفت لحظتها أن هذا البدوي الماكر قد شعر بالخطر ، وهو يداهمه بحدسه وفطرته ، فقد درب ، وهو ابن الصحراء ، كل حواسه على استشعار الخطر ومن بعيد ، فركضت وراءه بكل ما أوتيت من قوة ، كنت أغوص أحياناً في الرمال الحمراء حتى الركب ، كنت أخوض بها خوضاً ، وليس مثله ، حيث لم تكن قدماه تلامسانها إلا بخفة ، إنهما تطيران عليها ، إنهما تمسانها مسّاً رفيقاً ، مسّاً خفيفاً وتتجاوزانها ، هو لا يضع قدميه مثلي ليتمسك بالأرض كما نفعل نحن على الدوام ، إنه يستخدم الأرض فقط ليقفزها ، مع ذلك كنت أحمل ساقيَّ من الرمل وأدفع نفسي للأمام مصمماً على النيل منه .

بقفزتين اجتاز تلاً آخر ، وأخذ يركض بسرعة كبيرة ، حين شعرت بأنه أفلت مني ، توقفت فوق التل ، وصوبت عليه

ببندقيتي وأطلقت عليه الرصاص ، غير أني لم أصبه ، فقد دخل في عمق وادٍ صغير ، وبدلاً من أن يركض إلى الأمام ، استغل عمق الوادي ، وقطعه أفقياً نحو الجهة الشرقية .

هرعت وراءه راكضاً ، وأنا أصرخ بكل صوتي :

- قف . .قف . .

كنت أقول علَّ الضابط والرفاق هناك كانوا قد سمعوا صوتي ، وسمعوا صوت الرصاصة التي صفرت وراء التلال ، وفي أعماق الصحراء ، لعلهم سمعوا صدى صوتي العالي ، فيهرعون من الجهة الأخرى لملاقاة هذا الخائن والقبض عليه .

لا أدري لماذا لم نشك به من قبل أبداً ، لم نشك به ولا للحظة واحدة ، وكيف استأمنته الاستخبارات العسكرية ، وبعثته معنا كدليل يعرف خارطة الصحراء ، وفي الوقت ذاته كان جاسوساً ، أو خائناً ، أو مجرد شخص ماكر ، ونصاباً باعنا إلى بني جدلة ، وهذا ما اتضح بالأمس من كلام الضابط معه .

-٤٧-

عـدت بعـد أن ركـضت وراءه أكـثـر من ربع سـاعـة لعلي أقبض عليه ، لم يكن هو مهمًّاً لي بحد ذاته ، ما كان مهماً لي الانتقام منه لخيانته قدر أهمية معرفته لمعلومات قد تفيدنا حول أساليب بني جدلة في المناورة وكيف قاموا بعملياتهم ضدنا ، وربما كان هو يضللنا بمعلوماته ويجعلنا في كل مرة نسقط مثل الخراف الغبية في كمين بني جدلة .

لا أعرف كيف ، ولكنه اختفى فجأة عن المشهد أمامي . ركضت يميناً ، وركضت شمالاً ، غير أني شعرت بأنه ضلَّلني ، فعدت . في البداية كنت ضللتُ الطريق ، وذهبت إلى مكان آخر ، ولكني ، مصادفةً ، وجدت آثار أقدامي وعرفتها ، عرفت المكان الذي جئت منه فأخذت أتبعه ، وكان أول إشعاعات الشمس قد أضاء الروابي المحيطة بالمكان .

-٥٣-

وصلت قريباً من بنايتنا المهدَّمة غير أني وجدت الحرس قد فارق مكانه ، قلت ربما كان قد دَلَفَ إلى الداخل بعد أن أشرقت الشمس ، وها هم الآن يستعدون لتعقب بني جدلة وراء المرتفع ، وعندما وصلت صحت بأعلى صوتي على الخيمة في الداخل ، غير أني لم أسمع غير تردد صدى صوتي في الوديان المحيطة بي .

شعرت بالخوف وقد تسرب إلى قدمي ، كان الأمر مريباً ، وحين دخلت بهدوء شعرت بالمكان خالياً تماماً ، لا صوت ولا نأمة أبداً ، كانت الخيمة ساقطة على الأرض ، وأحداث تدافع ربما حدثت هنا وهناك ، شاهدت آثار دم أحمر لا يزال ساخناً على الأرضية ، وآثار اصطدام على الجدران .

فصرخت بأعلى صوتي إلى السماء :

- يا إلهي ، قد ذبح رفاقي . .

**

خرجت مثل المجنون من المكان ، عرفت أن بني جدلة سيعودون لي ، أو سيجعلونني مثل جرذ بين أقدام قط ،

سيدعونني أهرب ومن ثم يتعقبونني ، سيكونون سعداء وهم يتعقبونني ويقتصون مني أليس كذلك؟ سيطلقونني في البداية ، ثم سيجعلونني أركض وأركض سعيداً بهروبي منهم في الصحراء المترامية ، وبعد ذلك سيراقبونني وهم يضحكون مني ، سأكون لحظتها مهروشاً بين أنياب ذئب مفترس ، سيجعلونني أتوسل إليهم وأطلب منهم الرحمة والعفو ، بينما سيقطعون لي عرقوب قدمي ، ويتركونني أنزف حتى الموت .

ماذا أفعل وحدي هنا في هذه الصحراء؟ قلت لنفسي وكأنني أهذي .

أخذت أدور في البداية مثل المجنون ، لا أعرف ماذا أفعل ، ثم دخلت المكان وأخذت بعض ما تبقى بعد السلب الذي تعرض له مكاننا ، أخذت ما تبقى من الأرزاق الجافة ، وهو كيس من البسكويت المطحون ، وضعته في جراب كان منور قد تركه في المكان ، ثم وضعت به زمزميتي ماء وجدتهما تحت الخيمة المقلوبة ، كنت أفتش بسرعة ، وأنا أهذي من الخوف والاضطراب ، كنت أفتش بسرعة ، فلم أعثر على شيء مفيد ، ثم فارقت المكان بسرعة كبيرة .

لقد دفعت نفسي بقوة نحو الهضبة العالية ، قلت لن أترك بني جدلة يتعقبونني في مكان ، لن يكون لي مكان يأتون إليَّ فيه ، سأهرب ، سأنفي نفسي في الصحراء ، سأجعل من نفسي بدويًا مشرداً ، لن يتمكنوا مني ، هكذا سأكون مثلهم ، مثل الإبرة في الرمال ، سأطير مثلهم ولن أضع قدميَّ على أرض .

-٤٨-

كنت اتخذت الطريق ذاته الذي سلكته في تعقب منور الهارب في البداية ، بحثاً عن ملابسه التي تركها هناك ، والتي كان ابن آوى يفتش بها بأنفه ويتشممها ، ووجدتها وقد نثرها هذا الحيوان ، كل قطعة في مكان ، فخلعت ملابسي العسكرية ، وارتديت الدشداشة وشددتها على بطني ، وارتديت الكوفية على وجهي ، وحملت سلاحي ، ووضعت شواجير الرصاص في الجراب ، ووضعته على ظهري ، وقفزت راكضاً إلى جهة الشمال الغربي ، وباشرت تعقب أخاديد الوديان .

**

كان للمرتفعات المحيطة بنا شكل الهضاب المنضّدة ، ولها لون أصفر غامق متقد ، وبعد أن نمت يوماً كاملاً على المرتفع استيقظت في الصباح ، كانت هنالك كومة من الزنابير تطن بصوت عالٍ وتدور حولي فأبعدتها بيدي ، كنت متمدداً على ظهري وذراعاي إلى جانبي ، عيناي مفتوحتان نحو السماء ، وفي السماء تدور سحب بيضاء .

سمعت صوت الريح ينحت في الرمل وفي الصخر ، وهنالك صيحات عقبان أسمعها تنساب فوق الريح ويتردد صداها بين الصخور ، فجأة نهضت على صوت غريب وأزيز قوي :

كانت هنالك أسراب من الطائرات المتجهة نحو الشمال ، بُهِتُّ أول الأمر ، ثم أدركت أن الحرب قد بدأت ، وهذه الطائرات هي طائرات الحلفاء المتجهة لقصف بغداد ، كانت هنالك مجاميع أخرى تأخذ الاتجاه ذاته ، عندها عرفت الاتجاه ، فالطائرات تتجه الآن إلى الشمال الشرقي ، أما موقعي فهو في الجنوب الغربي .

**

الحرب بدأت وأنا هنا في الصحراء .

تحركت نحو التلال الرملية ، كانت أشعة الشمس تفيض على المرتفعات الصخرية ، وضوء النهار يكشف جمال الصحراء وصمتها وسحرها ، لقد سطعت الشمس على الرمال فتوهجت مثل نثار الذهب ، وبعد أن وصلت المنخفض شاهدت مجموعات صغيرة من طيور الحجل ، فجلست هناك أرقبها ، وقد وفرت لي فرصة كبيرة لإزالة الصدأ عن نفسي ، فقد توقفت متقطع الأنفاس منحنياً على المنخفض لسطوة الجمال الذي أخذني .

**

ما إن رفعت رأسي قليلاً حتى رأيت قافلة تسير باتجاه

الشمال ، لقد ظهروا لي كسراب على الرمال ، كاد أن يحجبهم ما تثيره أقدامهم من غبار ، وبدأوا يهبطون إلى الوادي ببطء يتبعون طريقاً مطموراً ، كنت أرى الرجال من بعيد وهم يرتدون عباءاتهم الصوفية ويخفون وجوههم باليشاميغ ، ومعهم هودج وثلاثة من الإبل ، ثم تتبعهم الماعز والخراف يستحثها على السير بعض الغلمان . أما النساء فقد كن في المؤخرة مثل هياكل بأغطية ثقيلة . كانوا يسيرون فوق الرمال دون ضوضاء .

هرعت وراءهم راكضاً . . وأنا أصرخ :

- يا هوي . . يا هوي . .

فتوقف الركب ، كنت وصلت حتى سقطت أمامهم على وجهي ، فتجمعت النساء علي ، كن يسدلن النسيج الأزرق الشفاف على عيونهن ، ويحملن الأطفال الرضع على ظهورهن محمولين بقماش مشدود على الأكتاف .

بعد ساعات كنت محمولاً على أحد الإبل ، وكان ضوء الشمس يتغير إلى اللون الأحمر تصاحبه هالة من الحمم ، وأصوات عذبة تتذبذب بين الأوراق الجافة لنباتات الصبار . كنت أنظر إلى الأفق الذي يغيب وقد سال العرق على جبيني وعنقي .

الجزء الثاني
جندي منتقم ومتمردون هاربون

-٤٩-

ما إنْ انطلقت القافلة وابتعدت عن المكان الذي كنا فيه حتى شعرتُ براحة كبيرة ، شعرت بأني تخلصت من هذا المكان الذي ورطنا الضابط فيه ، حيث إنه مكان معلوم وموضوع ، ومن السهل مهاجمته ، وثانياً شعرت بأني ابتعدت عن جساس وبني جدلة والذين قتلوا كل رفاقي في الفصيل ، والشيء الثالث شعرت بأن وصولي إلى بني جابر هو الهدف الآن ، لأنه سوف يكون من السهل علي عندها التفكير جديًّاً بالانتقام من جساس وبني جدلة ، أو على الأقل من الأربعة الذين كانوا معه ، والمتورطين بمقتل رفاقي ، أو على الأقل الوصول إلى القاعدة التي انطلقت منها وتهيئة فصيل جديد للهجوم على جساس وبني جدلة والقضاء عليهم .

هل هذا ما سأقوم به لو وصلت إلى لحظة أشعر فيها بأني سيطرت كليًّاً على الموقف ، وأني بدوي مثل جساس بلا موقع ولا وطن يمكنه أن يحاصرني به؟

**

عبر هذا الالتواء في الأحداث كنت شعرت بفائض قوة ،

لقد انتهت هذه المغامرة العسكرية بإخفاق مريع، ووصلت أنا عبر الخوف إلى نهاية المتخيل، ما الذي يمكن أن يحدث بعد كل ما حدث، لم تعد هنالك كلمات قادرة على مضاعفة رهافة التعبير، وبفضل إقبالي على الحياة علي أن أتماثل مع مصيري، بقليل من الانفعال كانت خاصرتي تبتهج وأنا ألفظ بشفتي مرة أخرى جملة :

لقد نجوت.

لم أكن أعرف بأننا إلى هذه الدرجة متعلقون بالحياة، شيء من العشقي والعبادي بها، لم يكن هذا الموت سوى مُتخيل من الدرجة الثانية، لا يمكن تبرير هذا الهروب والتراجع حتى وإن كان ذا صبغة ذاتية، فهو لم يكن تبريراً بالمعنى المطلق للكلمة، ولا شغفاً بالموت حتى بمعناه الحنيني، إنما كان الجميع يريد أن يقدم لغة فردية لا تتعلق باللغة العامة مطلقاً، والجميع كان يحلم بميتة حقيقية لا ببعثرة آثار جسده على الرمال.

**

لقد مرت القافلة بواحة أو واحتين فقط في الطريق الطويل والمتجه إلى الشمال، ثم عرفت أنهم سيقفون عند نهاية الهضبة الكبيرة ومن ثم سينعطفون غرباً، وكنت ساعتها فكرت بالهرب من هذه القافلة إلى قافلة أخرى، أو على الأقل أنتقل إلى قافلة أخرى ستمر ببني جابر، غير أنهم لم يجيبوا عن أسئلتي بوضوح فيما يخص كيفية الوصول السهل والسريع إلى بني جابر، أسألهم هل ستمرون ببني جابر، فيقولون :

- نعم . .

- متى؟ هكذا أسألهم غير أنهم لا يملكون جواباً ، فالكل موجود هنا في الصحراء ، كلهم يدورون فيها ، أما متى تلقاهم فهذا ما لا يعرفه أحد مطلقاً ؛ لأن البدو هنا يدورون حول أنفسهم ، مثلما هي الصحراء دائرة على نفسها ، مثلما هي السماء دائرة على نفسها ، مثلما هي الكواكب والنجوم والأقمار دائرة على نفسها ، مثلما هي الرمال دائرة على نفسها ، ومع ذلك كنت أفهمتهم أني أريد الوصول إلى بني جابر بسرعة ، وكنت أريد التخلص نهائياً من نفوذ بني جدلة .

وعلى الرغم من أنهم قبلوا انضمامي إلى قافلتهم ، إلا أن أحداً منهم لم يسألني من أين أنا ، ومن الواضح أنهم لا يسألون الضيف قبل ثلاثة أيام أي شيء عن نفسه ، أو عن مهمته أو عن عشيرته ، وكنت نويت أن أقول لهم إني من الجيش ، حيث إنني عرفت من المرأة التي كانت ترعى الماعز أنهم من آل مضر ، فقلت في نفسي :

- لا بأس ، طالما هم ليسوا من بني جدلة . .

وكنت لحظتها نسيت أن بني جدلة وبني جابر كليهما من آل مضر ، وهكذا التبست علي الأمور بشدة لحظتها ، غير أن ما كنت أريده ذلك اليوم هو الهرب من المكان الذي كنت فيه ، والذي كان هدفاً حقيقياً من قبل جساس وبني جدلة بشكل عام .

ولكي أغريهم بما عندي أخرجت لسائق القافلة بضعة

دنانيـر في جيـبي وأريتـهـا له ، وقلت لـه «أنا سـأعطيك هذه» . وكنت وجـهـت عليـه بندقـيـتي ، قُلتـهـا لكـي يعلـم إن حـاول أن يسلبني أنني سأقتله ، فنظر إليّ مستهزئاً ، وقال لي :

- هذا ربك . .في المدينة أنتم تعـبـدون هذه الزرقـاء . .نحن لنا هذه . .

وأشار لي بيده إلى الصحراء .

-٥٠-

إن الصفاء هو جوهر الامتداد في الصحراء ، والسر يكمن على الدوام في الوضوح الكلي الذي ترقد تحته كل عناصر الطبيعة . وفي الوقت الذي نرى في المدينة انتظاما تاما للحوادث ، حيث تنبثق الأحداث وفق وضعية متماثلة ، فتصبح أشبه بخطوط سلاسل أو أشكال هندسية ، تنبثق الأحداث في المدينة كما لو كانت خاضعة لفن إرادي يجعل من السهل علينا إدراكه ، غير أننا نجد أنفسنا هنا بعيدا تماما عن كل انتظام ، إن الزمن في الصحراء هارب ، وكل شيء يحدث خارج علاقات عادات التعاقب المعروفة ، كل شيء يحدث هنا بشكل محض ، ولأسباب داخلية عميقة ، وكل الانطباعات والأشكال والصور خاضعة لنوع من تتابعات الديمومة الشخصية .

**

رفعت الجمال نفسها عن الأرض ، وسارت بنا القافلة متوغلة في الرمال البعيدة ناثرة النقع وراءها ، وكنت على سنام الجمل وقلبي يضرب بقوة . كنت أشعر بأن الأمر لم ينته بعد .

ومع أنها اجتازت مسافة طويلة حتى طلع علينا العصر وكأنه مرسوم بريشة فنان من العهود البابلية القديمة ، إلا أني كنت متوتراً جداً ، وشيئاً فشيئاً أخذ جسمي يرتخي . أخذت حواسي تلتهب وروحي تبرد ، قلت لعله هو برد الصحراء ، لعلها هذه المشاهد الخلابة التي تحيط بي ، ربما كانت الملابس البدوية التي ارتديتها والتي أضفت عليَّ راحة كبيرة ، لقد شعرت أن هذه الملابس المتوائمة مع مناخ وحياة الصحراء حررتني من تلك الضيقة التي كانت تمنعني من أن أكون جزءاً من هذه الصحراء الكبيرة والشاسعة ، كانت ملابسي الكاكية وقبعتي الصوف وبسطاري ونطاقي - وهي التي كنت أفخر بها فيما مضى - تشكِّل لي نوعاً من المسافة المتعالية على الحياة هنا ، وبعداً كبيراً عن المشهد الذي كنت فيه . لم تكن ملابسي العسكرية المعادية للبدو - حتى وإن بدت الحياة العسكرية تطويراً للروح البدوية - حاجزاً بيني وبين الاندماج بهذه الحياة الجديدة عليَّ فحسب ، ولكنها كانت تضعني أيضاً على مسافة شاسعة مما يحوطني : التقشف اللا محدود ، والرمال المترامية ، والسماء التي بلا تخوم .

فهذه الدشداشة المرتخية هي التي منحت جسدي حرية أكبر ليكون جزءاً من هذا المشهد الذهبي المحيط بي ، وهكذا شعرت بعد ساعات من المسير القاسي ، وكان البعير يميل بي يميناً وشمالاً ، شعرت كما لو كنت جزءاً من القبة الكبيرة للكون .

**

لقد عرفت للمرة الأولى أن الله ليس بعيداً عني هنا ، كما كنت أشعر به بعيداً عني تماماً في المدينة ، فالدين لا يشكل شيئاً في الصحراء ؛ لأن سكان الصحراء يحيون في روح الله ذاتها ، إنه منهم على بعد لحظات ، إنه فيهم ، والله كائن في كل ذرة من ذرات الكون ، وقائم في كل تمظهر من تمظهرات الوجود ، إنه الرمال الممتدة ، وقطرات الماء المطلوبة والمشتهية ، وهو الوحشة في الليالي الدامسة والمضاءة بالبريق المميز للسماء ، وهو اللون اللازوردي والملتهب للأمواج المضيئة ، وهو اختلاط الضوء مع الفجر الذي يجتاح الصحراء .

لم يعد الله في الصحراء غريباً ومتعالياً عليهم بل هو منهم وفيهم ، هو البدوي الأكبر والذي يسوح في كونه الذي خلقه يميناً وشمالاً ، شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، هو الجهة حتى لا تكون هنالك جهة للكون ، وهو الحد الذي لا حد له ، هو روح الوجود في الوجود ذاته ، فهو المساء الذي يصعد وردياً بلون النار ، وهو اللون الصدفي للتلال والهضاب ساعة أن تكون الشمس في السمت ، وهو القمر حينما ينغرس في قاع السماء مثل قرص من الفضة ، ويشحب لونه كلما انغمر في الرمال العميقة ، إنه تلك الأشعة المنقسمة والمتألقة بانسجام كامل بفضل درجات لونها المتعاقبة ، إنه قوس قزح الذي يتجلى لامعاً ، وتنكسر حلقته في قبة السماء ، وتتبعثر في الهواء .

**

سارت القافلة بخطوات بطيئة مسيرة يوم واحد ، ثم توقفت في الصباح في مكان لم أستطع تمييزه بدقة كبيرة ، ولم أميز منه سوى واحة صغيرة عليها أجمات شجر قصيرة ، وبضع خيام منصوبة لها قماشة مشطبة ، مسحوبة بحبال مشدودة بأوتاد

مثبتة بالأرض وعلى هذه الحبال نشرت مجموعة من البسط الصوفية ذات الألوان المبرقشة .

على مقربة من هذه الخيام هنالك أطفال صغار يركضون بدشاديشهم البيض على الرمال ، ويضعون على رؤوسهم عرقشينات ملونة ، وهنالك رجال مسلحون أشبه بالحراس يقفون عند الطرف من هذا المخيم ، وكأنه معسكر في البرية ، وبعيداً عن تجمع الخيام هنالك خيمة كبيرة معزولة ، يقف عندها سقاة وقهوانيون ، ونساء يسوين الخبز في مكان محفور في الأرض ، وهو على الأرجح خبز شعير ، حيث كنت أشم رائحته من بعيد ، وعلى مقربة منهم كانت هنالك نار مشتعلة ، وقربها رجل طويل يعمل القهوة في دلاء كبيرة ، موضوعة على النار .

**

كنت أنظر شعاع الشمس في الظهيرة وهو يهبط الوادي المحاذي للنتوء الصخري الذي يقابلني ، إنه شعاع متواصل ومخصب ، أو هو بالأحرى صفاء مُدهش ينفذ في الفضاء كله ، ينفذ في هذا الفراغ المذهل من أجل أن يبدد أية عتمة في الوادي ، ويقضي على أية سماكة ممكنة للظل ، ويختزل كل شيء : كل صخرة ، كل حجر ، كل نتوء صلب ، إلى حدود نحافة السطح المتوهج .

هذا الصفاء الموزع بشكل مذهل ، لا يشبه الصفاء الذي يسود المدينة أبدا ، لا يشبه صفاء المدينة الذي يحاذي الظل الرتيب ؛ ذلك الشعاع المنبثق بلا لون ، والمهشم بحدود لا عد

لها ، والساقط فوق الحجر الذي يكسو الجدران ، وبلاطات الأرض ، وخزانات الملابس وستائر النوافذ الضخمة . إنه يكشف عن هذه التفاصيل المملة ؛ والتي نريد تجاوزها بسرعة مكتفين بأن نتعجل في رؤية ما نريد ، ومعرفة ما سيحدث لاحقا . وهو شعاع غير متواصل ، وغير قادر على تخصيب الفراغ برمته مثل هذا الشعاع في الصحراء والذي لا يخترق المكان فقط ، إنما يخترق الزمان أيضاً ، ويمنحنا القدرة على الحركة في مسافاته . إنه النور في الصحراء الذي يضيء الفراغ ، والذي يجعل المكان مرئيا حسب ، إنه صفاء يجعل الفضاء كلي الوضوح ، ويكشف عن كل شيء في الطبيعة بينما هو يختفي تحت صفاء الأشياء ، ليبقى الأكثر خفاء وسرية في الصحراء . والرمل هو الأكثر تعرضاً للوضوح ، إنه محدد ومع ذلك لا نهائي؟ إنه الأكثر تفرداً ، والأكثر انفعالاً ، والأكثر قسوة ، وهو الأكثر قربا أيضا .

-٥٢-

وحين شعرت بالجمل وهو ينوخ ويبرك في الرمال ، قفزت من فوق السنام مذعوراً ، حاملاً سلاحي وحاضناً جرابي .

لا أعرف لماذا خفت ، لم يكن أحدٌ من القافلة منشغلاً بي ، باستثناء الرجل الذي كان يقود البعير ويرعاه ، وكان يفعل كل شيء دون أن ينظر في وجهي ، لم يتكلم معي مطلقاً ، قلت ربما هذه عادة البدوي . لم يهتم لأمري أبداً ، كأنه لا يراني ، كنت مثل شبح بالنسبة له ، فيمر دون أن يوجه إليَّ كلمةً واحدة .

في الليل جاءت امرأة كبيرة السن تعصب رأسها بعصابة سوداء ، ويداها موشَّمتان حتى الساعد ، ترتدي ثوباً سميكاً وتلفُّ على نفسها عباءة صوف ، كان وجهها حنوناً وفي عينيها حزن غائر غير مفهوم ، وناولتني طاسة فيها حليب النوق ، وقد شربته للمرة الأولى في حياتي ، وناولتني خبز شعير بائت لكنه لذيذ جداً ، فعرفت منها أن هذا هو عشائي .

في الصباح وبعد أن ارتاحت القافلة ، وأناخت الجمال على الأرض جاءني السائس ، وهو رجل متوسط القامة

وضعيف جداً ، كان يرتدي حزاماً جلدياً عريضاً وضع وسطه خنجراً في قراب مزخرف ، وكان يرتدي دشداشة سوداء مبطنة ، وقد لف على جسده النحيف عباءة صوفية سوداء مهدبة ، بينما غطى وجهه بطرف يشماغه وأدنى عقاله على جبينه ، وهذا الرجل هو الآخر لم يكن مهتماً بي ، فما كان يهمه حقاً هو مسيرة القافلة ، ونجاتها من السلاَّبة مثلاً ، وتوفير الغذاء لكل الجمال والحيوانات التي معنا ، وكان يفتش عن أماكن لأمان النساء ، ويوزع الطعام على الجميع .

ولكن من أين جاءت القافلة ، وإلى أين هي ذاهبة؟ ربما بدا هذا السؤال الذي سألته إياه مضحكاً .

- من أين جاءت القافلة؟ قلت له .

- من هناك؟ أشار بيده إلى الجنوب .

- من هناك . . من أين؟ قلت له مستفسراً . .

- من هناك . . وأشار بيده مرة أخرى .

- لم أفهم . . ألم تجئ من مكان له اسم ، له صفة؟

- من الصحرا . .

- مهيه كلها صحرا؟ قلت له .

- نعم . . جينا من الصحرا . . يعني من هناك .

- طيب إلى أين أنتم رايحين؟

- لهناك . . وأشار إلى الشمال . .

- أعرف لهناك . .ولكن ما هو هذا الهناك ، ما اسمه؟

- اسمه .اسمه الصحرا . قال مستغرباً .

إنهم يدورون على أنفسهم ، من الـ«هناك» إلى الـ«هناك» ، كان الغرب هو أول من اخترع كلمة L'ailleur وهو المكان المستحيل ، المكان المحلوم الذي لا يمكن الوصول إليه ، المكان الذي بلا حد ولا تخوم دون أن يعرفوا أن L'ailleur هو من اختراع البدو ، وأن الشيء الذي بلا تخوم هو الصحرا .

- طيب أنا خائف من بني جدلة . . وأعتقد أنهم سيقتلوني لو ظفروا بي . . أنا أريد الوصول إلى بني جابر . .

- نوصلك . . قال .

- كيف توصلوني . .؟

- لما نصل . .

- لكنكم لا تصلون . .

- حنا نصل . .

- كيف تصلون وأنتم تدورون على أنفسكم ، كل شيء فيكم دائري لا خطي ، الحقيقة ، الرمال ، الصحراء ، الزمن ، الله ، الإنسان ، القدر ، المصير ، التاريخ . . كله دائري . . أنتم تدورون على أنفسكم . . والكل يدور فكيف تلتقون . .

- نلتقي . .

- كيف؟

- نقول للشيخ . .

- أريد أشوف الشيخ . .

- أقول للشيخ . . أنت ضيف . . أنت تقدر تبقى هنا وقت ما تشاء ، حنا نطعمك ونكسيك لحد ما تشوف نفسك ، إما

تصير معنا واحداً من القبيلة أو نوصلك للمكان اللي تريده . .

- أنا ما أريد أصير واحداً من القبيلة . . أريد أن أصل إلى بني جابر . .

- نقول للشيخ . .

ثم ذهب دون أن يكلم أحداً ، وبعدها جلب الماء بدلو كبير وسقى الإبل جميعها ، ثم وزع على أفراد القافلة فرداً فرداً بضع تمرات ، وقطعة من خبز الشعير مخبوزةً على صاج ، وقطعة لحم مملحة ، وهو من اللحم الذي يوضع في خابية كبيرة من الفخار ، يُترك اللحم فيها لمدة شهور منقوعاً في الماء والملح ، حتى يتفتت وكأنه قد طُبخ على النار طويلاً .

في المساء كانت القافلة قد مرت على رابية تؤلف رأس الهضبة ، وكانت النجوم مشتتة في السماء ولون بعضها يميل إلى اللون الفضي ، أما قمم الهضاب فكانت ذهبية ، ينمو عليها شجر وردي ناعم مُستضاء عند الأطراف ، وهنالك بعض الزهور بلونٍ ناريٍّ ملتهب ، حارة مثل ألسنة الحريق .

بركت القافلة ، لم أسمع غير صرخة الحادي وقد تناءت في الفضاء .

بركت الجمال ، وهبط الرجال منها لينصبوا الخيام على أرض مغطاة بالأحجار المكورة ، كان هنالك بعض الجياد التي شدت بالأوتاد ، أما الجمال فقد بقيت مطلقة ، وقد وزع علينا الساقي الماء باقتصاد ؛ إذ لم يبق في الجرار سوى القليل من القطرات .

كانت هنالك واحة جافة ، لم تكن سوى حوض يابس ، وعليها آثار أقدام الجمال والماعز التي كانت آخر من ارتوى منه . رفعت القافلة خيامها في الليل ، فتمددت في الخيمة بعد أن فرشت لي المرأة العجوز بساطاً صوفياً مغزولاً ، كانت معها شابة

جميلة وضعت نقاباً على فمها ، وما كان يظهر منها سوى عينين سوداوين واسعتين ، كانت الفتاة نحيفة ، ترتدي ثياباً سوداء مجسمة عليها ، وقد ناولتني إزاراً بخفر شديد .

قلت لها شكراً ، ولم تجبني ولكن أنزلت عينيها إلى الأرض .

التفتُّ إلى المرأة العجوز وسألتها :

-ابنتك؟

قالت : لا ، زوجة ابني .

**

تمددت على الأرض ، ونمت في الخيمة . وكان وميض النجوم التي تتلألأ في السماء التي تمتد فوقنا مثل قبة ، يأتيني من باب الخيمة المرفوع قليلاً .

**

في الصباح ذهبت إلى خيمة الشيخ .

توقفت في الباب أولاً ، كانت هنالك مهرة جميلة مطهمة عند باب الخيمة ، مكسوة بالفرش المصنوعة من الصوف ، ثم دخلت ، خيمة واسعة مفروشة ببسط الصوف والإزارات الملونة ، استقبلني الشيخ بحرارة كبيرة ، كان وجهه نحيفاً وعظام خده بارزة تذكِّر بالمنحوتات السومرية الموضوعة في المتحف ، وقد برز لي من بين الجالسين عنده بهيئة عالية ، كان مثل نصب طويل ، وخلفه مجموعة من الرجال المسلحين الذين يرتدون الدشاديش الغامقة ، واليشاميغ المبقعة ، والعقل

الصغيرة المدنية على الجبين . أما الشيخ فقد كان يرتدي نطاقاً من الجلد علق به مسدساً كبيراً ، وفي يده مسبحة سوداء طويلة ، وخلفه سيف قديم ورمح طويل للغاية مزين بريش النعام ، ربما هو شعار القبيلة أو العائلة ، كانت يده اليمنى غارقة في يدي لصغرها ونعومتها ، وقد أمسك بيده الأخرى غليونه الذي يدخن به .

-٥٤-

كنتُ قد درتُ على جميع من في الخيمة لمصافحتهم ، وفي تلك اللحظة جاء شاب على فرسه وهو يضرب الأرض بقوة ، كأنه يطارد في صيد محموم ، وبدلاً من الارتجال من الحصان أطاح بجسده على الأرض بوثوق الرجل الذي يعرف مقدار أهميته ، وهم بالدخول تحت الخيمة ، إلا أن بعض الرجال في الباب منعوه من الدخول وظل خارجاً .

استقبلني الشيخ بود ظاهر . . وتقدم نحوي خطوات وقال لي :

- يا هلا بالضيف . .

- يا هلا بيك يا شيخ . .

- أنت معزز مكرم . . واعتبر نفسك بين قبيلتك وأهلك . . قال لي .

- يا شيخ أنا جندي من العراق . . . وجئنا بمهمة في الصحراء . . غير أن بني جدلة حاصرونا وقتلوا كل رفاقي ، وأنا الوحيد الذي هربت من جساس وبني جدلة في الصحراء ، وشفت قافلتكم واستنجدت بيها ، وكانت لي العون الكبير ،

وعرفت أنكم من آل مضر . . وهذا يعني أني سأخبر قاعدتي عنكم . . . ليعرفوا أنكم خير عون لنا في الصحراء .

- أبشر . .!

قالها ، وطأطا رأسه إلى الأرض . .

- طيب يا شيخ ، أنا لا أريد أن أُطيل عليكم ، ولا أريدكم أن تتورطوا بحرب مع بني جدلة ، وعصابة جساس . . . ولكن أطلب منكم إيصالي بأقرب وقت إلى بني جابر . . فهنالك حلف بين القوات العسكرية وبني جابر على ملاحقة وطرد بني جدلة من الصحراء . .

- والله شوف . .أنت ضيف معزز مكرم ، إن أردت البقاء هنا أهلاً وسهلاً بيك ، لا تفكر بأي شيء ، إن كنت تريد الوصول لبني جابر نوصلوك . . أما طرد بني جدلة من الصحراء فهذا مثل طرد الرمل من الصحرا . .

- على العموم أنا سأنقل للقيادة العسكرية تعاونكم ، وهم سيقومون بالواجب تجاهكم . .

التفت إليَّ مبتسماً وقال :

- والله احنا هنا في الصحرا عايشين . . سلم لنا على عسكرك . . ونحن لا نطلب شي منهم . . حنا عايشين هنا قبل أن يكون لكم عسكر . .

-٥٥-

في الواقع شعرت شعوراً غريباً وأنا أخرج من خيمة الشيخ ، كان الشاب الذي جاء بقوة على فرسه ، وأراد دخول الخيمة ، ومنع ، واقفاً لدى الباب حين خرجت ، كان وجهه عابساً ، وينظر نحوي نظرات حقد غريبة ، وإن كان استقبال الشيخ ودياً ، لكني شعرت به متضايقاً من كلامي ، ولم أعرف السبب ، ولم أخمنه كذلك .

كان الاستقبال قد ترك فيَّ أعمق الانطباعات ، بما حمله الشيخ من لمحات غريبة ، وما كان يحمله هؤلاء البدو من صفات برية ، أصيلة ، ومذهلة ، وكنت في الواقع متأثراً أعمق التأثر به ، فقد أدهشني بكل شيء ، ليس بكلامه المتقشف فقط ، إنما حتى بالألبسة والألوان الغامقة للخيمة ، وهذا الداخل الدافئ والحنون والمؤطر بالديكورات العجيبة .

لقد أدهشني هؤلاء الناس بملامحهم الغريبة ، فلهم بشرة شفافة ، وخيمهم مصنوعة بعناية ، وبسطهم وسجاجيدهم متوجة بنقوش من طراز عربي شبه بربري ، فضلاً عن أنهم يختلفون عن كل البدو الذين التقينا بهم ، فلهم أجسام رياضية طويلة وقوية ، ويرتدون على نحو رائع أثوابهم الحمر الأنيقة

الطويلة ، وتغطي رؤوسهم كوفيات مبقعة تزيد من التعبير الضاري لهيئاتهم الذكورية ، ولهم بشرة سمراء جميلة .

وحين خرجت كان هنالك بضعة أطفال يركضون على الرمال ، فصحت بهم ، وسألتهم :

- هل بنو جدلة بعيدون من هنا؟

قالوا مستغربين : حنا بنو جدلة .

**

لم أكن أتوقع على الإطلاق أني كنت أعيش كل هذه الوقت مع بني جدلة ، دون أن أعرف ذلك ، فقد كان الأمر صادماً لي .

بهذه الكلمات القليلة يمكنني أن أختصر شعوري تلك اللحظة . كان الأمر صادماً لي ، وكنت أسير في الطريق مبهوتاً ومندهشاً وغائباً عن التفكير بما حولي ، فما كان ممكناً لي أبداً أن أضحك من نفسي أو أن أسخر منها لأني وقعت في موقف متناقض وبصورة قدرية ومصيرية ساخرة لا مثيل لها :

- هل هذا معقول؟ هل يمكن أن يحدث هذا لي؟ هكذا كنت أكلم نفسي .

فقد كانت مظاهر الدهشة ومشاعر الخوف قد استوليا عليّ في تلك اللحظة ، لقد خرجتُ فاغر الفم ، غير مصدق ما حدث ، مضطرباً ومتلكئاً ومرتبكاً إلى الحد الأقصى ، وأنا أسير بخط مستقيم من خيمة الشيخ إلى خيمتي الواقعة في الطرف الأقصى من المخيم .

-٥٦-

في بداية الأمر ، حاولت استعادة كل الأحداث التي مرت بي منذ لقائي بالمصادفة مع القافلة المارة في المنطقة التي أطلقنا عليها في خطتنا العسكرية «منطقة الهدف» ، والتي كان البدو يطلقون عليها اسم «تل أحماد» ، حتى وجودي الغريب هنا في هذا المخيم الذي يشبه المعسكر إلى حد بعيد . بل حاولت تفسير كل الأحداث التي مرت بي هناك ، حتى العارضة منها ، منذ أيام وصولنا إلى الصحراء إلى الآن ، ولا سيما تلك التي كانت تتعلق بأيامي الأخيرة في المخيم . ثم حاولت استعادة كل الوجوه التي صادفتها هناك وبسرعة كبيرة ، حتى وجوه الأطفال والنساء ، حاولت استعادة وجه الشيخ بوقاره وصوته الضاري ، وجوه الحراس الصارمة ، وجوه الشباب الذين رأيتهم عند الخيمة ، وجوه الرجال الحكماء الذين كانوا عند الشيخ ، وجه السائس والقهواني والراعي ، وذلك الرجل الذي جاء على فرسه ورمى نفسه عند باب خيمة الشيخ ولم يُسمَح له بالدخول ، وقد رأيت ساعتها الشرر يتطاير من عينيه .

– من يكون؟ . .قلت في نفسي .

ثم استعرضت في ذهني كل الذين كانوا على الجمال في القافلة بوقارهم وهيئاتهم الضارية ، وكل وجوه الرجال الذين صادفتهم هنا في المخيم . واستعدت في ذهني كل ما دار بيني وبين المرأة التي كانت تجلب لي حليب النوق وخبز الشعير ، وحديثي مع زوجة ابنها ، واستعدت أيضاً وجوه النساء اللواتي كن يصنعن الخبز في الوجاق المحفور في الرمل ، واللواتي يحلبن النوق ، وأخريات كن يرتدين الملابس السود ، ويرعين الماعز والخراف .

كنت أحاول أن أقرأ من خلال الوجوه مشاعر الحقد والضغينة أو المشاعر المعادية في وجوههم ، حاولت أن أقرأ في وجوه هؤلاء الرجال الذين صادفتهم من منهم كان يضمر الشر لي ، وكنت أتساءل : لم لم يكلمني أحد منهم ، ولم يقترب أحد منهم مني؟

كانوا يعرفون بأنني من الجيش ، هذه القوة التي كانت تشكل العدو الأساسي لهم ، القوة التي اقتحمت عليهم صحراءهم ، وأرادت أن تفرض قوانينها عليهم ، وكانوا يقاومونها بشكل متواصل ، يقاومونها في كل شيء ، حتى بأدواتهم البسيطة ، حتى بصمتهم . إنهم يكرهون هذه القوة المتغطرسة التي لا تحاربهم وتهدد وجودهم فقط ، ولكن تذلهم وتهينهم أيضاً ، وكانوا يعرفون أن الكل هنا له قوانينه ونظامه ، وهم لا يتجاوزونها ، لا يتجاوزون هذه القوانين ولا الأنظمة أبداً ما دامت لا تتجاوزهم ، وها أنا بينهم وهم لا يؤذونني الآن ؛ لأنني

من ضمن قوانينهم وأنظمتهم ، أنا الضيف الذي يُراعى حتى لو كـان عـدواً ، ولكن منْ يضـمن أن يحـافظوا على قـوانين طالما خرقناها نحن معهم آلاف المرات . .

هل أتصور في يوم أن جساس مثلاً يتعلق بإحدى القوافل العسكرية ، وهو متعب من المسير في الصحراء ، وقد وصل إلى حـد الموت من العطش ، وطلب منهم أن يقلوه مـعـهم ، وهم يعرفون أنه جساس من بني جدلة ، ومع ذلك يأخذونه معهم ، ويقـولون له أنت ضـيف ولك حق الضيافة معنا ، سنطعمك ونسقيك وبعد ذلك نوصلك للمكان الذي تبغيه ، وما إن يصل المكان الذي يبغيه حتى يستقل بنفسه ، ويستعيد صحته وعافيته ، ويصبح جاهزاً للقتال ، فيقولوا له الآن نبدأ معركتنا معك . شيء مضحك بالنسبة للقيادة العسكرية اليوم ، لو قلت لهم أنا بين بني جدلة ، لقالوا لي اقتل على قـدر ما يمكنك منهم .

-٥٧-

إذن ، هل يجدر بهم أن يحافظوا على قوانين الصحراء وأنظمتها ونحن نخرقها كل مرة ، هل يجدر بهم أن يفعلوا ذلك ، بينما نحن نستخدم كل قوتنا ضدهم! سيقول بعض العقلاء منهم :

- ما الحكمة من بقائها ، نحن نحافظ عليها والآخرون يخرقونها؟

وهكذا ربما سيناقشون في مجلسهم هذا الأمر وتترجح كفة خرقها ؛ لأنهم سيعيدون قوانين أخرى ، كان قد سنها أجدادهم البابليون من قبل : قانون «التعامل بالمثل» ، أو قانون حمورابي «العين بالعين والسن بالسن» وهكذا سيجتمعون ليلاً في خيمتي يحمل كل واحد منهم سكيناً طويلة ، وبطعنة رجل واحد سيقضون عليَّ ، ويتخلصون من هذا الشر الذي جاءهم في عقر دارهم .

**

كل هذه الأفكار قد داهمتني دفعة واحدة وأنا أقطع المسافة بين خيمة الشيخ وخيمتي في طرف المخيم .

كنت أسير بين قطعان الخراف والماعز التي ترعى بحرية وسط المخيم، وكانت الجمال تدير رؤوسها بكسل، عيونها البيض واسعة تتوهج على نحو غريب، ومشافرها وهي تلوك على الدوام مائلة للسواد، ترفع الجمال رؤوسها المتأرجحة الكبيرة بين دلاء الماء وبرك القش، وهناك بضعة صقور وعقبان تحلق فوق الصخور، وكنت أرى بني جدلة بنظرة جديدة، أخذت أراهم بريين وبدائيين على نحو يفوق كل وصف. كانوا بدواً شرسين يقفون عند طرف المخيم وهم ينظرون إليّ، بعضهم كانوا يقفون وهم يحرسون قطعانهم، منعزلين، ومنتصبين مثل قصبات نحيفة، متكئين على عصيهم الطويلة، مكتسين الفضاء بدشاديشهم الواسعة التي تهفهف في الريح، ويقفون فوق الرمال بلا حراك، كان البعض منهم له هيئة متأملة مثل تماثيل آلهة صغيرة، في حين كان الآخرون جالسين أو ممددين في ظل عدد من الشجيرات الصغيرة النادرة، صامتين، شرسين، ينظرون إليّ حين أمر بينهم دون أن تبدر منهم علامة دهشة واحدة. أما ذلك الشاب الذي جاء على فرسه وهبط بقوة عند خيمة الشيخ فقد كانت له عيون من نار، وأسنان بيض مثل العاج، وجهه النحيف لوحته الشمس، ولكنه قاس ومؤثر.

-٥٨-

حين وصلت الخيمة ، كنت عثُرتُ بالسجادة المفروشة عند الباب قبل أن أدخل ، عندها رميت بنفسي بقوة على الفرشة المصنوعة من صوف الخراف المغزول والذي يصنع عادة من قبل نساء القبيلة .

تمددت على ظهري ، وأخذت أستعيد بذاكرتي كل حركة شاهدتها ، وكل كلمة سمعتها ، وكل أشارة مرقت علي ، وكل حركة وجه ارتبت بها منذ وصولي إلى الصحراء وحتى هذا اليوم ، حاولت أن أؤول كل شيء ، وأن أفسر كل ما حدث ، ومن ثم أصنع ترابطات في عقلي بين هذه الأشياء التي شاهدتها وعشتها وبين النتيجة الأخيرة لوجودي الآن بين بني جدلة .

يا إلهي ما الذي حدث حقاً لأرتكب هذا الخطأ الكبير ، وأكون هارباً من بني جدلة محتمياً ببني جدلة؟ كيف حدث هذا الأمر؟

هذا ما كان علي أن أجيب عنه على الأقل أمام نفسي ، فحاولت أن أستعيد في ذهني كل الأحداث التي مرت بي منذ

وصولنا كقوة عسكرية إلى هذه الصحراء وفقاً للمهمة التي جئنا لتنفيذها ، حتى الآن ، منذ التحاقي كجندي بكتيبة المغاوير الثالثة والعشرين إلى ما انتهى بي الأمر : أسيراً ، أو سجيناً ، أو محكوماً بالموت عند بني جدلة . أخذت أستعيد شريطاً سريعاً وواسعاً من الصور لكل ما مر بي ، من مجيئي إلى المعسكر المتاخم للحدود ، وكان الواجب فيه هو صد هجوم قوات التحالف المحتمل ، إلى التحاقي بهذه المهمة ومقتل أصدقائي ، منذ هروبي من المكان الذي عينه لنا النقيب كنقطة انطلاق لملاحقة البدو إلى التحاقي بالقافلة في الصحراء ، منذ وصولي إلى مخيم بني جدلة دون علم مني إلى اللحظات التي أمضيتها في مسيري بين خيمة الشيخ وخيمتي ، وقد رأيت كل شيء مختلفاً هذه المرة ، مختلفاً بشكل كلي عن اليوم الذي قدمت به ، وشعرت بالفرح لأني تخلصت من بني جدلة .

**

كان شريط الصور يمر في ذاكرتي متلاحقاً ومتسارعاً ، صورتنا كجنود نهرول في القاعدة بعد أن زودونا بمعدات خاصة لتصفية العدو ، كنت أستعيد شريط الأوامر الخاصة التي تلقيناها لتصفية أو أسر مجموعة من البدو ، أستعيد كلام النقيب وهو يحدث ضابط الاستخبارات في القاعدة بأنه سيحسم هدفه في بضع ساعات ، ومن ثم نعود نحن كفصيل إلى القاعدة بعد أن يتصل المخابر بهم ويقول لهم إن الواجب قد تم .

وهكذا سيرسلون لنا الطائرة الهليكوبتر إلى الموقع الذي أنزلتنا فيه ، وسنصعد واحداً بعد آخر إلى الهليكوبتر التي ستضرب ريشاتها في الفضاء مثل طبل ، وستعود بنا إلى القاعدة التي انطلقنا منها ، بينما ستهرب مجاميع وعصابات البدو كلما رأتنا ونحن بملابسنا العسكرية نتسلق الطائرة ، ونطير فوق الصحراء ، كأكبر قوة معترف بها هنا في هذه البرية .

-٥٩-

كل هذا لم يحدث ، فيأتيني شريط آخر غير شريط الانتصار الذي رأيته ، إنه شريط الخسارة ، والذي يمثل الواقع في الحقيقة ، صورة المخابر المقتول ، صورة الجنود الثلاثة المقتولين ، صورة الأربعة المخطوفين وأنا أقفز من تل إلى تل وراء منور ، صورتي وأنا أركض هارباً من جساس وآل جدلة عند الهضبة ، ملابسي البدوية الجديدة ، ذقني غير المحلوق ، وشعري الأشعث المملوء بالرمل ، هذا ما بقي من قوة غارة الصحراء ، الفصيل الذي انتدبته الاستخبارات العسكرية لتنفيذ هذا الواجب المهم في الصحراء الغربية .

كيف يتم تأويل الأحداث إذن؟ هذا ما كنت أسائل به نفسي كل مرة .

حسنٌ ، لقد قتل المخابر بخطأ تكتيكي قام به قائد المجموعة ، أو خطأ لوجستي في الحقيقة ، أو أنه خطأ في السياق الاجتماعي الذي يحكمنا نحن ، ويحكم البدو من الجهة المقابلة .

هل كان من المفترض أن تكون هنالك أرض كي ننطلق منها؟

لا يمكن أن ألوم الضابط أبداً على ما فعله ، لماذا؟ لأنه ابن مدينة ، وفي المدينة يتم التفكير بخط مستقيم ، يبدأ التفكير من نقطة انطلاق إلى نقطة وصول ، يبدأ من أرض إلى أرض معلومة أخرى ، من موقع إلى موقع مقابل ، من وطن إلى وطن ، من قاعدة إلى قاعدة-هدف ، وهكذا ، بينما البدوي لا يعرف هذا التفكير مطلقاً ، إنه ينطلق من حيث هو إلى حيث يريد ، أو إلى حيث يكون الأمر الذي جاء لفعله ، من الموقع إلى الموقع ذاته ، من النقطة الى النقطة عينها ، إنه يدور ولا يصل ، إنه يصل مثلما هو يدور ، وهكذا كل الطبيعة تدور معه .

**

وها أنا الهارب من بني جدلة أجد نفسي بين بني جدلة مجدداً ، ربما كنتُ الآن أسيرهم ، أو رهينتهم ، لا أعرف ، حقيقة لا أعرف ، لا أعرف ماذا يريدون مني ، ولا أعرف ماذا سيفعلون بي؟

إنهم قادرون بطبيعة الأمر على قتلي في أية لحظة ، قادرون على قتلي وطرحي فريسةً للكلاب الجائعة التي تملأ الصحراء ، دون أن يعرف أحد-، ولن يعرف أحد ، أو ربما هم الآن بانتظار جساس ، كي يصل من رحلته الطويلة في الصحراء ، من مغامراته ومخاطراته مع فصيل الصحراء الذي انتصر عليه وهزمه ، ليسلموني له كي يعبث بي ، ويقتلني بطريقة شنيعة كما فعل برفاقي ، ولا بد أنه علمَ بهروب أحد أعضاء الفصيل ، لا بد أنه عرف ذلك من خلال منور الذي خاننا وذهب إلى

جساس ، وها هو الآن يبحث عني ، وحين يعود سيجدني أمامه .

**

لحظات وجاءت هذه المرأة العجوز إلى الخيمة لتقدم لي حليب النوق ، كانت قد حملت بيدها الطاسة الكبيرة ، وزوجة ابنها وراءها ، حملت لي قطعة من خبز الشعير .

ما إن شعرتُ بوجودهما عند باب الخيمة حتى قفزت إلى سلاحي وحملته بين يدي ، ووضعت جرابي على كتفي .

- منو؟ صرخت بصوتي ، وأنا أتلفت بحذر ورعب .

- خذ! هذا غداك . .

دخلتْ الخيمة هي وزوجة ابنها تحملان الحليب وخبز الشعير ، وكنت أمامهما بصورة تدعو إلى الرثاء ، كنت أتكلم وصوتي يرتجف ، وبندقيتي مصوبة عليهما .

- أريد أسألك والله سؤال . .قلت لها .

- اسأل يا ولدي . . قالت .

- هل أنتم هنا من بني جدلة . .؟

- إيه والله أنت بين بني جدلة يا ولدي . .

- أنا هربت من جساس بني جدلة . . وهو لو عرف بي هنا لقتلني .

- أنت ضيفنا يا ولدي . . وجساس ابني وهذي مرتو . . وأشارت إلى الشابة التي برفقتها .

لقد تجمدتُ في تلك اللحظة ، تجمدت قدماي في

مكانهما ، بينما شعرت بأن يديَّ لم تقويا على حمل البندقية ، يا إلهي ما هذا القدر الغريب ، ما هو مصيري الآن؟ لم أعرف ماذا أقول لهذه المرأة التي تقف أمامي وهي تقول لي إنها أم جساس ، وهذه زوجته التي كانت تنظر إلي بعينين مشفقتين ، ما معدن هؤلاء الناس؟ لا أعرف! لقد قتلوا رفاقي كلهم وها هم يشفقون علي ويعطونني الحليب وخبز الشعير ، بينما أنا في أية لحظة يمكن أن أكون في عداد الأموات . . . شعرت بأني تورطت حقاً في وضع لا يمكن لي الانفلات منه ، أنا هارب من بني جدلة وها أنا بينهم ، بين القبيلة كلها ، إن كنت هربت فيما سبق من خمسة منهم ، ها أنا بين القبيلة وبين شيخها وحراسها وفرسانها ونسائها وعجائزها . . والأدهى من كل ذلك ها أنا بين أهل جساس ذاتهم ، بين أمه وزوجته . .

- جساس في الصحراء لو عاد سيقتلني صدقيني . .

- جساس في القبيلة . . موجود هانه . . ما يقدر يمسَّك بشي يا ولدي . . أنت ضيف القبيلة . . وأنت استنجدت بالقافلة وهي اللي جابتك . . لو رحت عنا . . يكون اللي يكون . . ولكن طالما أنت بينا ما حدا يمسَّك من القبيلة والله . .

ثم نهضت المرأة والشابة كلتاهما وذهبتا .

-٦٠-

عدتُ إلى مكاني ، جلست في طرف الخيمة قبالة الباب ، شربت الحليب ، وأكلت الخبز وأنا منغمس في التفكير ، ثم أعددت جرابي ووضعته على مقربة مني ، فحصت سلاحي وزيَّته ، وأعددت الرصاص في الشاجور ، وسويت خنجري وفحصته ، كنت هيأت نفسي بصورة جيدة ، لمعركة ربما قريبة مع جساس أو مع بني جدلة ، واتخذت سائر الاحتياطات اللازمة لمثل هذه المعركة ، حتى وإن كانت غير متكافئة ولكنها على الأقل دفاع عن النفس .

بقيت أكثر من ساعة متأهباً ، ومتوجساً من كل ما يحدث خارج الخيمة ، متحسباً لكل طارئ ، متوجساً من كل صوت ، من كل حركة ، من كل نأمة تصدر من أي شيء خارج الخيمة ، فسرعان ما أمسك بندقيتي وأقرب جرابي وأتهيأ للاشتباك ، إنه أمر غير مستبعد ، إن لم يكن قريباً فهو على الأقل محتمل في هذه الظروف .

**

- عليَّ أن أحسم أمري هنا . . قلت في نفسي . وأن أعرف

على الأقل ما هي الخطوة القادمة؟ عليَّ التفكير بشكل جدي، وأقول لنفسي: ماذا أصنع الآن؟ ما هي الخطة، ما هو الهدف، ما هي النقلة الثانية، ما هي حركتي وكيف ستكون، ولا سيما بعد أن عرف الجميع هنا أني عرفت أنهم من بني جدلة؟ لم يعد الأمر مثلما كان، الآن هم يعرفون وأنا أعرف، هل أتمشى بينهم هكذا، وأنا جئت في فصيل لقتلهم أو أسرهم، هل أسير هكذا بحرية، وأتنقل بينهم، أتحدث معهم، أتكلم وأضحك، هل أرتمي عند أقدامهم وأطلب الرحمة؟

ماذا أفعل؟ هم يعرفون أن الأمر وصل الذروة الآن، وأنا أعرف كذلك أن الأمر لم يعد صالحاً كما كان، أصبحت الآن ثقيلاً عليهم، حتى وإن قالوا لي إني ضيف عندهم، وإني دخيل بينهم، وأنا محمي، ولكنهم يعرفون أني الآن أشكِّل خطراً عليهم، أشكل خطراً من كل الوجوه، وأن القاعدة العسكرية لن تسكت مطلقاً، وإذا جاءت بقوة عسكرية أخرى وفتشت الصحراء، وعثرت على جميع جثث الفصيل، واكتشفت أن جثتي غير موجودة بينهم، ستعرف أني حي، عندها سوف تبحث عني، وهكذا سيشكل وجودي هنا بالنسبة لهم خطراً عليهم، كما أني شاهدت وعرفت كل شيء، أي بمعنى آخر أنا الشاهد الوحيد على هذه المعركة، فكيف يتركونني أفلت، وأشكل خطراً عليهم؟

إذن ما العمل؟

كنت أفكر مع نفسي، وأقول إنَّ علي أن أستخدم عقلي

بشكل جيد هذه المرة ، عليّ أن أفكر عكس ما يفكرون ، أو على الأقل علي أن أقلب الأمور وأفكر بها بطريقة معكوسة عن الطريقة التي يفكرون هم بها ، هم يقولون عني إنني ضيف ، ولكنني أقول هنا إنني رهينة أو أسير لديهم ، وعليّ أن أتخذ الاحتياطات اللازمة كافة لحماية نفسي ، وأن أضع كل الخطط البديلة ، بل عليّ الآن أن أضع خطة سريعة ، أحسم بها أمري في مخيم الأعداء .

السؤال الذي عليّ أن أطرحه على نفسي هو هل سأبقى معهم . . وإلى متى؟ هل أهرب من المخيم في الصحراء لأجد بني جابر عند نقطة معينة ، أو على الأقل أبحث عن قافلة أخرى تمر من هنا من هذا المكان كي ألتحق بها وأصل إلى بني جابر؟

الشيء المهم أن أتأكد من نوايا القبيلة ، ومن نوايا جساس ، هل لديهم خطة لقتلي في هذا المكان ، هل يفكرون الآن بما أفكر به أنا ، هل يريدون أن يقتلوني بشكل خفي ، هل يتركونني أهرب مثلاً ويبعثون شخصاً ورائي ، أو على الأقل سيذهب جساس ورائي لقتلي ، لماذا تركوا أم جساس وزوجته لتجلبا لي حليب الناقة وخبز الشعير ، ولم يأتِ السائس مثلاً ، أو القهواني؟ كل هذه الأفكار قفزت إلى تفكيري مرة واحدة ، وكان عليّ أن أحل كل هذه الأشياء وبالسرعة الممكنة .

حينما طلع المساء ، بقيت وحيداً في الخيمة ، لم أخرج للتنزه أبداً ، بل صار لدي نوع من الرعب والخوف من كل شيء ، كلما سمعت صوت أقدام عند الخيمة ، أو حركة شخص يقترب من الخيمة نهضتُ من مكاني ، وركضتُ إلى بندقيتي وجرابي ، أحملهما معي وأتهيأ للمعركة ، كلما سمعتُ صوتاً أركض متهيئاً للمعركة . حتى سمعت وأنا جالس في الخيمة أن هنالك قافلة قريبة من المخيم ذاهبة إلى عمق الصحراء ، عندها تهيأت للهرب من هذا المخيم والالتحاق بالقافلة .

**

كانت لحيتي قد طالت لأني لم أحلق ذقني منذ أن وصلت هذه الصحراء ، شعري مشعث منذ أكثر من شهر ، وأنا لم أستحم مطلقاً بالماء ، بل لم يعد جسدي يعرف الاستحمام ، فالماء كان للشرب فقط ، ولا أحد يفكر هنا بالاستحمام مطلقاً ، غير أن الصحراء والرمال والشمس تلوِّح الجسد وتجففه ، ولذلك تجد أجسادهم النحيفة الناعمة المعروقة قوية وهي من جنس

الصحراء ومن رمالها .

قطعة لحم صغيرة واحدة ، وقليل من التمر وشيء من خبز الشعير ، أو القليل من مخيض اللبن أو حليب النوق ، هذا هو كل طعامهم ، وهذا ما أعانني لأكون نحيفاً جداً ، وجعلني أشعر بنوع من الخفة لا في الجسد فقط ، ولكن حتى في الروح ، كانت روحي تطفو ، تصعد مع كل حدث من أحداث الطبيعة ، فالجسد عائق كبير وترويضه يجعل الحواس رهيفة كلها ، ولأدنى شيء .

أقول إن هذه الحمية المفروضة والترويض الكامل لجسدي من الطعام ، قد ساعداني كثيراً عند هربي من مخيم بني جدلة ، فقد أصبحت قادراً على الركض والمناورة في الصحراء ، بينما كنت أشعر فيما مضى بأن جسدي كان يثقلني جداً ، وأن حياة التقشف هذه قد أثرت علي دون شك ، وجعلتني أفكر على نحو سليم أيضاً .

**

كنت هربت من مخيم بني جدلة مساء ، بعد أن عرفت أن حراس الشيخ بعيدون ، ولم يبق إلا قلة من الحراس عند الطرف القصي من المخيم ، ومع شعوري بأنهم كانوا يعرفون أنني أهرب ، إلا أن أحداً منهم لم يعترض طريقي ، ربما هم الذين تركوا المنطقة القريبة مني مكشوفة كي يساعدوني على الهرب والتخلص مني .

كنت سمعت قبل يومين بأن قافلة ستمر على مقربة من

المخيم ، مسيرة أقل من نهار عنه ، وأنهم عازمون على قطع الصحراء والوصول إلى الهضبة الرملية الجنوبية التي تمر من معسكر بني جابر ، فقررت الالتحاق بهم ليلاً ، كنت أعددت نفسي جيداً ، وقررت الساعة التي أخرج بها من الخيمة ، وأهرع راكضاً في الصحراء للبحث عن هذه القافلة ، وكنت حدَّدتُ وجهتهم جيداً ، حيث كان عليّ أن أضع النجمة القطبية على يميني ، وأنحرف شمالاً حتى أصل مخيمهم المؤقت هناك ، أو ألحق بهم وهم ينحدرون نحو الجنوب .

-٦٢-

في الليل تلثمت بيشماغي ، حملت سلاحي بيدي ، ووضعت جرابي على كتفي وخرجت من الخيمة ، نظرت يميناً وشمالاً فعرفت أن المنطقة التي أنا فيها مكشوفة ، وهكذا سحبت أقسام البندقية لأهيء رصاصة فيها ، وركضت .

كنت عبرت الهضبة تلة بعد تلة ، مرتفعاً بعد مرتفع حتى وصلت إلى منحدر صغير بصخور غيرانيتية ، فشاهدت من مكان بعيد تصاعد لهب أصفر يلمع في الفضاء ، لم أر النار ولا المخيم ولكن دخاناً أبيض وانعكاس لهب أحمر على خلفية الليل السوداء ، فأخذت طريقي نحوها ، ركضت وكأنما أدخل في المجهول ، كانت أنفاسي تصعد وتهبط بقوة ، كنت ألهث بشدة ، وأنا أركض مثل السهم في الظلام متجهاً إلى الأمام ، طائراً نحوهم باستقامة واحدة ، لا أعرف ماذا ينتظرني ، أو ماذا سأجد أمامي أو من هم هؤلاء الناس الذين كنت أتجه نحوهم .

في لحظة لا أعرف كيف ، كنت فكرت بالآتي :

- ماذا لو كنت قد اتخذت الطريق الخطأ؟ وها أنا متجه نحو جساس ورفاقه الأربعة الذين صفوا فصيلي ، لم لا يكون

ذلك فهو أمر محتمل جداً؟ خطأ صغير في الاتجاه وأكون قد ذهبت بأقدامي له ، كما ذهبت بأقدامي إلى قافلة بني جدلة ، وإن نجوت في المرة السابقة ، فهذه المرة ستكون نجاتي بعيدة المنال تماماً . على العموم كنت أصل تقريباً إلى حافة هذا المخيم الصغير الذي يتألف من إبل وخيم مؤقتة قليلة وجياد وشياه ، وأخذت أصيح باتجاههم بصوت عال :

- يا هوي . . يا هوي . . ، وهي الصرخة التي يطلقها البدو من بعيد .

كانت الصحراء تردد صدى صوتي من كل جانب ، وما هي إلا لحظات حتى هرعت الكلاب نحوي ، كانت كلاب القافلة الشرسة أول ما استقبلني ، وكنت أدرك جيداً أن كلاب القوافل وحوش كاسرة ، أكثر شراسة وذئبية من الذئاب ذاتها ، وبلحظة واحدة كانت قد أحاطتني من كل جانب ، وأخذت تتقدم نحوي لتلتهمني ، غير أني جلست على الأرض مباشرة ، وهذه نصيحة تلقيتها من جندي مرة ، قال لي :

«إذا حاصرتك الكلاب اجلس على الأرض أمامها ، وبالتالي هي لا تقدم على مهاجمة من استسلم أو اعترف لها بالتفوق» . .

إذن من اعترف لكلاب القافلة بتفوقها ستعقد معه هدنة ضمنية وتجلس أمامه وتهر بذنبها مؤشرة له ، بأنها ستلتهمه فقط في حالة تقدمه لا في حالة تقهقره . كنت جلست ، بينما جلست الكلاب حولي من كل جانب ، ما هي إلا لحظات

حتى ركض لي نفر من القافلة ، وكانوا يظنون أني سلاّب أو لص ، فصحت بهم :

- ضيف .. ضيف ..

-٦٣-

كانت القافلة من بدو الجنوب الذين يطوفون الصحراء ، ويصنعون خيامهم من جلد الماعز الأسود المشدودة بالأوتاد ، ويعيشون على شكل جماعات متنقلة ، حيث يضعون النار على الدوام على أبوابهم ، كانوا فقراء جداً ، وليسوا مقاتلين مثل بني جدلة ، إنما كان رجالهم يسهرون على البهائم المشتتة في السهل ، ويتسلون بالقصص والشعر ، وينظرون إلى السماء مثل رعاة الأساطير السومرية ، فلم يخطوا طوال ستة آلاف عام خطوة واحدة ، وسيعيشون مثل أولئك البشر الأولين ، وسيموتون مثلهم أيضا . كنت أقمت معهم في مخيمهم المؤقت عند الهضبة الحمراء ، حيث كان الرجال يشعلون النار لإعداد القهوة ، ولم يكن الحطب ينقصهم ، وذلك لأن المرتفع كان مزدحماً بأغصان الشجر ، ولم يخشوا اضطرام النار التي بوسعها أن تدل على مكان وجودهم ؛ لأنهم كانوا فقراء .

وفي الصباح كنت نائماً في الخيمة ، ومع الفجر سمعت صوت طائرات الحلفاء المغيرة على بغداد ، كنت أجلس على الرمل أمام الخيمة ، وأرفع رأسي عند مرور أسراب من الطائرات

القادمة من الجنوب والمتجهة إلى الشمال ، وصوتها الحاد يصم الآذان ، كانت تتجه في الغالب نحو الشمال الغربي ، وكنت أعرف من خلالها أن هذا الاتجاه هو اتجاه بغداد .

لكن كيف يفسر البدو هذا العدد الهائل من الطائرات التي تشق الصحراء في اتجاهها نحو الشمال ، كيف يفهم البدوي هذا الصوت المرعب الذي يشق التلال الحمراء شقاً ، ويتجه نحو المرتفعات العالية؟

أخذت أتحدث لهم مثل أي جندي من جنود كتيبة المغاوير الثالثة والعشرين :

- هل تعرفون أن هذه الطائرات هي طائرات أميركية . . وهي ذاهبة نحو بغداد لقصفها؟

- . . .

لم يجب أحد منهم بشيء ، كانوا يتلفتون إلى بعضهم ويبتسمون .

- ربما أنتم لا تعرفون أين تقع أميركا . .

- . . .

تتحول الابتسامات إلى ضحك ، وهم جالسون أمامي ، يدخنون بقصبات طويلة مبرية عند الحافة .

- أبعد من الصحراء ، وأبعد من البحار ، وأبعد من كل الأقطار المحيطة بنا .

- . . .

يتلفتون إلى بعضهم ويضحكون .

- هل تعـــرفــون أن الحــرب بدأت؟ أنا كنتُ جندياً في الجبهة ، كنت قريباً من الحدود ، غير أني قدمت هنا في فصيل من الأبطال اسمه غارة الصحراء . .

يلتفتون لبعضهم ويضحكون .

- ماذا بكم . . تضحكون . . ألا تهمكم الحرب؟

- بلى تهـمنا . . تهمنا الحـرب بين بني جدلة وبني جابر ، بين آل ســدخــان وآل طعــمــة . . الحــروب . . كل الصــحــراء حروب .

- لا أتحــدث عن هذه الحـروب . . أنا أتحــدث عن حــرب الوطن . . أتحدث عن هذه الحرب الكونية الكبرى التي تشترك بهـا أكـثـر من ثلاثين دولة . . كنا ننتظر هذه الحـرب والآن قـد اندلعت .

يضحكون أيضـاً ، إنهـا لا تهـمـهم؟ لا يهـمـهم هذا التـاريخ البعيد عنهم ، فهم لهم تاريخهم الخاص بهم ، أما التاريخ الآخر فهو تاريخ الآخر ، وهذا ما جعلني أعيش في منظومة أخرى من التاريخ ، في عالم آخر ، وكنت أجذب نفسي لأكون بينهم ، أما هم . . . فهم لا يعنيهم هذا الأمر على الإطلاق . .

-٦٤-

كانوا قد حملوني معهم على ناقة صغيرة حيث سارت بي غرباً معهم ، حتى طلع علينا الليل ، فنمنا على الرمال ونحن نخفي وجوهنا تحت اليشاميغ ، وفي الصباح واصلت إبلنا سيرها متأرجحة في الوديان ، وشاهدنا هنالك الكثير من الربيع والخضرة وأشجار القيصوم ، والصبار . وكنت تحت رحمة أولئك البدو الذين كانوا يقودونني في الأراضي الوعرة ، فكنت أغور معهم ، كنت أغور أكثر فأكثر معهم في المجهول البعيد ، وقد ازداد الفضاء قتامة رغم أشعة الشمس الثقيلة ، حيث كانت تكمن تهديدات بالموت لا علم لأحد بها .

فقالوا لي إن هذه الوديان سيئة الصيت ، إذ كانت تختبئ فيها على الأغلب عصابات اللصوص التي تسلب القوافل وتذبح فرسانها ، وكانوا قد نصحوني بتفاديها ، فسألتهم عن اسم القبيلة التي تقطنها قالوا لي أنهم بنو جابر ، فرقصت فرحاً ، هذا ما كنت أريده ، ها أنا قد وصلت حسب الخطة العسكرية التي حملتها معي في الفصيل الذي أطلق عليه فصيل غارة الصحراء ، فقد كان الأمر واضحاً بالنسبة للقيادة

العسكرية وهو أن بني جابر هم العون اللوجستي في حالة تعرضنا لأي طارئ في الصحراء مع بني جدلة ، وإن كان على الضابط في ذلك الوقت أن يتصل بهم ، فقد صار عليَّ ، لكي أتم المهمة ، أن أتصل بهم .

فودعت هذه القافلة التي تتكون من الناس البسطاء والطيبين والمسالمين وهبطت المرتفع نحو هؤلاء البدو المتوحشين . هبطت من الجمل ، وحملت سلاحي ووضعت جرابي على كتفي وركضت باتجاه الوديان والمغاور ، هناك ، حيث رأيت في المسافات الرملية القريبة منها مخيمهم ، ونساءهم ، وإبلهم ، وشياههم ، ورجالهم المسلحين .

**

سرت ساعات وساعات في الوديان الصامتة وسط تضاريس غريبة ، وكل ساعة كنت أتسلق كتل الغيرانيت الوعرة السمراء ، أو الوردية ، وتارة أسير على الرمال الذهبية الهشة ، وأحيانا أكون في قاع الأراضي الطينية التي حفرتها الأمطار وصقلتها منذ أقدم العصور ، وكانت الأشكال مرسومة حتى لتبدو كمجاميع من أشكال متميزة كأنها مصنوعة منذ أيام نبوخذ نصر .

سرت ساعات على هذا النحو ، حاملاً سلاحي بيدي ، وحاملاً جرابي على كتفي ، وكأني أسير في بلد معاد ، فأقتفي بين كثبان الرمال التصدعات المتكونة في الحمأة ، والتي احترقت من أشعة الشمس ، وأعبر الرمال المتحركة التي تغير

من مكانها على الأرض المنبسطة ، وتظهر كما لو كانت حقلاً من نشارة الذهب ، وفي الأعلى كنت أرى بضع شجيرات كسيحة ، وكان عليَّ أن أعبر الوادي وأجتاز الرمال المتحركة ، وأصعد مرتفعاً ثم أهبط إلى مخيم بني جابر ، وهكذا واصلت طريقي ، ومع أنه كان يبدو - من بعيد - قريباً ، فقد أمضيت ساعات طويلة حتى أشرفت على المعسكر من الأعلى .

تنفست الصعداء ، كنت أمسك عصاي الطويلة بيدي وأتوكأ عليها ، وسلاحي باليد الأخرى ، وشددت جرابي بحبل على ظهري وكتفي ، توقفت قليلاً لأشم طراوة الهواء العذب الهابِّ على المرتفع ، وأنظر إلى المخيم في الأسفل ، وكانت التلال الرملية المحيطة به مرصعة بالأحجار الحارقة . وكل دقيقة كانت تشق الفضاء صرخة واحدة من طائرات الحلفاء التي تهبط عند الصحراء ، فيتردد صداها في الفضاء ، إنه تاريخ آخر ، أقول لنفسي ، هذه الصحراء لا تاريخ لها مع تاريخ المدن خلف المرتفعات .

-٦٥-

كنت أعرف أن الحرب مستمرة ، أعرف أنها ناشبة ولم تتوقف بعد ، أما البدو فلا أحد منهم يعرف عن ذلك التاريخ الذي ترسمه المدن على مقربة منهم أي شيء ، وما دمتُ أنا هنا ، فقد قررت أن تكون حربي هنا ، أن تكون حربي انشباكاً بين تاريخين متباعدين ، تاريخ المدينة وتاريخ الصحراء .

كنت قد هبطت باتجاه المخيم كما لو كنت هابطاً باتجاه معسكر ، فقد كان المخيم كما أراه من أعلى يتخذ شكلاً دائرياً منتظماً إلى حد ما ، متكوناً من خط واحد من الخيام الواسعة نسبياً ، وهذه الخيام منسوجة من شعر الماعز أو الجمال وبلون أسود أو بني ، على عكس خيام بني جدلة التي تكون مشطبة إلى حد ما ، وتشد هذه الخيام على ثلاثة أوتاد أو خمسة أوتاد ، وتكون بارتفاع ستة أقدام فقط مما يمنحها شكلاً مسطحاً ، وقد بدا لي هذا المعسكر وكأنه بقع سود .

حين وصلت هرع نحوي الرجال على جيادهم وأسلحتهم بأيديهم ، فأطلقوا في البداية طلقتين تحذيريتين في الفضاء ، بينما بقيت سائراً بثقة إلى أمام ، واضعاً سلاحي على كتف ،

والجراب مشدود على الكتف الأخرى ، وفي يدي عصاي أتوكأ عليها ، حتى وصلت منطقة قريبة أشبه بالواحة أو البئر حيث كانت النساء يملأن منها الماء ، فوقفن على أقدامهن ينظرن إليَّ نظرات مندهشة ، وأنا أسير بخطوات مسرعة ثابتة وواثقة ، حتى وصلت نحوي كتيبة مكونة من ستة فرسان واضعين أسلحتهم على أكتافهم ، كانوا يثبون على الخيول المطهمة ، الخيول العربية الرشيقة ، فأخذوا يدورون بها حولي دورات متعددة لترهيبي ، بينما بقيت أنظر إلى أمام ، دون أن أطرف بعيني ، قالوا لي :

- من أين أنت؟

قلت لهم :

- أنا من فصيل غارة الصحراء . . الفصيل من كتيبة المغاوير الثالثة والعشرين . . جئنا من أشهر هنا لمقاتلة جساس بني جدلة . .

- وين فصيلك؟ قال أحدهم .

- ماتوا جميعاً . . قتلوا في المعارك . . .

تلفتوا إلى بعض وأخذوا يضحكون بصوت عال .

- وش تبغي من بني جابر؟ . . قالوا .

- بينكم وبين الجيش تعهد بالدفاع عنه في الصحراء ، وإعطاؤكم حق الولاية على جميع الصحراء الغربية . .

كانوا لا يزالون يدورون حولي بخيولهم . . ويثيرون النقع ، وأنا أديمُ النظر باستقامة واحدة ، وكنت أتكلم بصورة واثقة :

- مهمتي هي القبض على جساس حياً . . أريد أسر جساس من بني جدلة وأخذه معي إلى القاعدة العسكرية . . . لمحاكمته هناك وإعدامه شنقاً . . .

لا أعرف لماذا أبهجتهم هذه الجملة وأفرحتهم ، فتلفتوا إلى بعضهم وهزوا رؤوسهم موافقين ، فجأة وبخفة شديدة هبطوا من جيادهم وتقدموا نحوي ، وهم يلفون وجوههم باليشاميغ المبقعة التي تميز بدو العراق ، صافحوني ، وربتوا على كتفي ، وتناولوا عني سلاحي وجرابي ، وأعطوني سيجارة وأشعلوها لي ، فوقفت أمامهم ورأسي مرفوع ، وأخذت أنفث الدخان في الهواء .

ما هي إلاَّ لحظات حتى أخذت القبيلة تتجمع حولي نساء ورجالاً وأطفالاً . لقد شكلوا دائرة كبيرة حولي وهم ينظرون إليَّ ، وأنا أقف أمامهم بملابسي المتهرئة الممزقة وأنفث الدخان في الهواء ، ثم دعاني الفرسان للدخول إلى المعسكر .

سار الجميع معي ، الفرسان إلى جانبي ببنادقهم البرنو ، بيشاميغهم المبقعة التي لفوها على وجوههم ، بقمصانهم البيض التي عقدوها بأنطقة واسعة في الوسط ، وعباءتهم الصوفية المرمية على الكتف ، وأعنة خيولهم بأيديهم ، ثم اتبعنا الآخرون بلجبهم وصخبهم ، أخذوا يسيرون وراءنا ، النساء والرجال والأطفال ، حتى كلابهم كانت تسير وراءنا وتنبح .

كنت أمشي وصدري إلى أمام ، وأنا أشق المعسكر من المنتصف ، كانت جمال القافلة باركةً على مبعدة من الخيام ، وكانت الجياد تسير معنا وأعنتها بأيدي الفرسان وهي تدير رأسها يميناً وشمالاً ، وكنت أرى الشيخ وحاشيته عند الخيمة الكبيرة ، وللمرة الأولى أرى نساء جميلات رغم الأقراط التي تخرم أنوفهن ، والوشم الغريب الذي يخط حواجبهن ورقابهن ،

وكان الأطفال أشبه بآلهة صغيرة يركضون على الرمل ، ويضعون على رؤوسهم طاقيات ملونة ، وهنالك فرسان آخرون على الخيول يقومون بدورياتهم عند الكتل الحجرية المنحوتة ، وكانت الماعز السود بآذانها الطويلة المتدلية قد تسلقت التلال الرملية وتلعب عند المغاور ، وهنالك مجموعة أخرى من الفرسان تنظر إليَّ ، وهي تتنقل من كتلة صخرية إلى أخرى فوق الممر العميق الذي كنا نمر فيه .

كانوا قد أخذوني إلى الخيمة التي سأقطن فيها ، ووضعوا بيدي سلاحي وناولوني جرابي ، وقدموا لي بعض التمر واللبن وخبز الشعير ، وقليلاً من اللحم .

وقالوا لي ، إن عليَّ بعد الظهيرة أن أمر على الشيخ .

**

في الظهيرة قدموا لي دشداشة بيضاء ويشماغاً مبقعاً ، وعقالاً صغيراً ، فارتديتها ، وكنت أشعر بمرح طبيعي بعد أن تجردت من ملابسي المتهرئة والممزقة ؛ شعرت بأني أنطلق في الهواء الذي أصبح أقل برداً ، وأصبح مشبعاً بالعطور ، صوب الآفاق الخالية ، متحرراً لبعض الوقت من ثقل سديم التراب ، نحو الغيرانيت الساحق . شعرت بأني أصبحت أكثر تحرراً وأكثر خفة ، وأنا أحدق ببني جابر الذين أصبحوا أقل همجية ، وأقل شراسة وقتامة ، وهم يؤلفون قبيلتي الجديدة .

كنت قد نمت قلقاً بسبب أصوات الطائرات التي كانت تمر من فوقي ، ثم استيقظت عصراً ، وخرجت من خيمتي فرأيت

بعض الجمال الممددة إلى جانب الأطفال في جوف صخري بارد قريب من الهضبة الرملية ، وهنالك حيوانات أخرى بالقرب من البقايا الصخرية الناتئة .

كانت الجمال ترفع رؤوسها المفكرة الهادئة فوق دلاء الماء الكبيرة ، وكان المشهد يتغير في كل لحظة مما يزيد من حدة انتباهي ؛ ذلك أن مجموعة من النساء قرب خيمتي كن يحلبن الماعز ، وهناك كانت قطعان الغنم تقفز الواحدة بعد الأخرى عند خيام الحرس . كانت خيامهم مختلفة ، كل خيمة تسكنها عائلة مقسومة بستارة إلى قسمين يعود أحدهما إلى النساء والآخر للرجال ، ويستخدم الفضاء الفارغ للدائرة الكبيرة لإيواء القطعان ليلاً ، ولا يملك بنو جابر معقلاً لهم ، فلديهم حراس يدورون حتى حول الصخور القريبة ، وكلابهم تنبح الوقت كله ، وتبقى خيولهم مسرجة ومتأهبة للركوب عند أول إنذار ، فهنالك تنظيم عالٍ لصد أية مباغتة عن هذه المعسكرات ، ولديهم وسائل دفاع عديدة في حالة الهجوم عليهم ، أما هم فكانوا يذهبون كل مساء لنهب البهائم من القبائل المعادية الأخرى ، كأنه عمل يومي بالنسبة لفرسان القبيلة ، إنها حروب الإغارة التي يشنونها كل يوم تقريباً ، وهو عملهم الذي يعيشون منه .

حين دخلت خيمة الشيخ استقبلني بنفسه ، كان وسيماً بعينيه الصقريتين ، وأنفه الطويل الناعم ، وأسنانه البيض التي تشبه العاج ، وكان هنالك رجال آخرون يجلسون القرفصاء ويدخنون غلايينهم تحت سقف الخيمة العالية ، وخلف الخيمة كانت جمال ، رُبطت رسنها بأعمدة قصيرة . كان بنو جابر سمراً سمرة صافية ، ويرتدي كل واحد منهم قميصاً بأكمام قصيرة ، حادة الأطراف ، يصل إلى حد الأرض ، يربطه عند الظهر ، ويشد هذا القميص عند الخصر بحزام عريض من الجلد المطرز ، ويحشر به خنجراً معقوفاً ، ويثبت تحت الحزام زوجين من المسدسات ، أو يحمل بندقية البرنو ، وبعضهم يبقيها محفوظة بعناية داخل غمد من الجلد ، ويلقي بعضهم فوق هذا القميص غطاء من الصوف بخطوط سمر وبيض ، ويضعون فوق رؤوسهم العُقل ذات اللون الأسود .

يا شيخ أنا من فصيل غارة الصحراء كتيبة المغاوير الثالثة والعشرين ، جئنا إلى الصحراء بمهمة ، غير أن جساس من بني جدلة غدر بالفصيل وقتل بعضه . .

- مرحبة بك . .

- أقول لك أيضا إن دليلنا في المعركة هو منور من بني

جابر غير أنه تآمر مع جساس بني جدلة وأوقع الفصيل في كمين فقتل أكثر الفصيل . .

تصاعدت الهمهمات في مضيف الشيخ ، وبعضهم نهض من مكانه مستنكراً . .

- وفقاً للحلف بينكم وبين الجيش . .أطلب مساعدتكم للقبض على جساس بني جدلة ، ونترك لكم أمر منور بني جابر لتقتصوا أنتم منه . .

نهض الشيخ على طوله في المضيف ، لم يكن كبير السن ، وكان خنجره موضوعاً بحزامه ، لف دورة أو دورتين وهو يرفع ذراعيه إلى أعلى ، وقال :

- حنا مع الجيش بحلف ، ونريد لهذا الحلف أن يبقى . . الشر كل الشر من جساس ومن بني جدلة . .

كل الجالسين عبروا عن موافقتهم وتضامنهم مع الجيش ، ثم التفت إليَّ وقال :

- حنا نعطيك جماعة من فرساناً يروحو معك . . ويقضبوا منور ، ويبيبشعوه . .

- لم أفهم . .

- البشعة البشعة قال . .

- التفت لي أحدهم بجانبه وقال لي هناك ستعرف . .

- ومنور هو اللي يدلي على جساس ، بس شرطنا أنك ما تذبح جساس هان ، ويصير بينا وبين بني جدلة دم . .خذوه إلى الجيش وهم ينجازوا معو . .

بعد يوم جاءني إلى الخيمة رجل كبير السن ، ومعه رجلان من رجال الشيخ ،

جلس عندي في الخيمة ليطمئنني ويتفقد حالي :

- إن شاء الله مرتاح أنت معنا هان في القبيلة . .

- أنا ما أرتاح إلا أن أقبض على جساس ، قلتها ذلك الوقت بكثير من الحماسة . .

- ابتسم لي وقال ابشر . .واصبر . .

- أنا معي أوامر عسكرية بالقبض عليه وأريده بأسرع وقت . . أنتم تعرفون هنالك حرب . . ألا تعرفون سألت . .؟

- فغر فمه بوجهي . . الظاهر أنهم لا يعرفون شيئاً عن الحرب التي تدور على الحدود ، ولا حرب الحلفاء ولا أي شيء آخر . .

- على العموم لدي واجب هنا علي تنفيذه . .

- حنا ما نعرف جساس وينوه ، بس نعرف راح نعلمك . . ونطلع له ونقضبه . . قالها بكلمات خافتة . .

- طيب متى تظن تتوفر هذه المعلومات . .

- والله يا ابني وإن كنت أنت معجل . .بس الموت أعجل كما نقول حنا في القبايل ، بس الصبر حكمة . .

- يا عمي أنا لدي أوامر . .

- أوامرك على الراس يا ولدي ولكن ما يعلم الغيب إلا عالم الغيب . .

- هل تعتقد أننا خلال أيام . .

- يمكن بيوم ويومين . .ويمكن بشهر وشهرين . .

- لا أرجوك . .لا تقل لي شهر وشهرين . .

- أنت هنا-قال ذلك ونهض من مكانه-ضيف معزز مكرم ، وقت ما تبغي الرحيل . . .الله معك . . .

لم يقل شيئاً آخر . .حمل عباءته بيده وتبعه الشابان اللذان كنت رأيتهما في خيمة الشيخ لدى وصولي . .

**

كنت أمضي الوقت في الخيمة ، لا شيء أفعله هنا ، كنت أعيش ما يمكن أن نطلق عليه «فجر الشعوب» هذا العنوان الذي تذكرته من غروسجون هو الذي أنعش تأملاتي ذلك الوقت ، فأخذت أعيش سعادتي البرية على نصوص الحضارات التي لم تكتب بعد ، أعيش نوعاً من العزلة التي كانت قد فرضتها بعض القبائل على نفسها ، هكذا كان شعوري ذلك الوقت ، إنه نوع من الفجر العجيب الذي يومض أبيض قبل بزوغ الشمس ، وأشعة دقيقة ومبعثرة في آن معا ، تجبرني على التفكير بها وبمثيولوجياتها كما لو كانت ترويها الكتب المقدسة

القديمة ، حيث لا أعثر بها على أصلي فقط ، إنما أعثر أيضاً على افتتاني الخاص بهذا العالم ، وعلى دهشتي الأولى بالكون وهو عار ، كما هو في فجره الأول وقبل أن يغشيه نهاره ، أعثر على العالم في بدئه حينما كان يعبّر عن نفسه بالصورة لا بالمفاهيم ، ويتمتع بإرثه الخاص به ، أعيشه كما لو كان هو عصر الأنبياء ، وأنا أمر به إنساناً عابراً مفتتناً ببراءته ، وباكتشافه الأولي لهذا العالم .

-٦٩-

حينما كنت أتحدث مع هؤلاء الناس كنت أشعر بزيف اكتشافنا لهذا لعالم ؛ لأنهم يحطمون هذا الاكتشاف ببراءتهم وشكوكهم ، إنهم يجعلوننا ندرك أن هذا العالم بحاجة يومية للاكتشاف ؛ لأن أرثهم وأساطيرهم تمنحنا فرصة معايشة لحظات خارقة لا يكون فيها العالم مجرد وهم ، إنما هو معجزة أيضا .

مرة كنت اقتحمت عليهم جلستهم حول النار وهم يتلون حكاياتهم ، كانت الصحراء متوهجة بضوء قمر شفيف ، والماعز تركض حولنا بآذانها المنحنية ، فعرفت أن هذه الحكايات الخالية من كل تنميق لا يمكننا أن ندرك معناها إلا في هذا المكان ، إلا في هذه البساطة العارية ، لا نعرفها إلا حينما نكون تحت القمر والنجوم ، وحولنا الماعز ورائحة الروث والرمل ، عند ذاك فقط نعرف ما لها من قوة مذهلة ومن نفوذ ، إنها قصص بسيطة مثل القصص الإيروتيكية لكنها لا تفرض نفسها بالضرورة -كما تفعل القصص الإيروتيكية- إنما تعلن عن نفسها ببساطة وهدوء تامين ، ولها ما للحكايات الدينية من يقين وشجاعة كافيتين لتجعل الآخرين يصدقونها .

وحين عدت إلى الخيمة ، وتمددت ، أدركت أن في كل

حكاية من حكاياتهم ثمة لحظات خارقة ، وثمة إغواء ، تحدثه رائحة الحيوانات وبساطة الرمل ، وقوة الحياة التي تنبعث من هذا المكان كما لو تنبعث من رضاعة ، كما أنها قصص الكتب المقدسة ذاتها في تكوينها الأول وقد استبدلت الشخصيات فيها والأسماء أيضا ، فقصة إيستر هي قصة رابحة ، وقصة النبي إبراهيم هي قصة خلاف ومرتوه ، وقصة النبي أيوب هي قصة مخيمر العليل ، إنها القصص والحكايات ذاتها ، تروى منذ آلاف السنين ، إنها خزان التراث البشري كله والتي تنتج الأديان والعلوم والأفكار ، إنها الصور الأولى والميثيولوجيات التي شكلت المفاهيم ، والأخيرة هي التي شكلت عالمنا الذي نعيش فيه على نحو استعاري .

**

هذا ما جعلني في اليوم التالي أسير عند النبع الكائن في طرف المخيم ، من عند بعض المرتفعات حيث تربط عند قاعدتها الصخرية بعض الخيول والجمال ، وهنالك عدد من الماعز يتراكضن في الرمال ، وكانت رائحة الزفر القادمة من هذه المجموعة من الحيوانات ، هي التي هيجت كل حواسي لحظتها ، فتحركت نحو النبع .

كانت هنالك مجموعة من النساء يحملن الجرار على أكتافهن ويلعبن بالماء ، يظهرن سيقانهن ويتضاحكن ، فشعرت برغبة قوية والتهاب في كل حواسي ، لا لمشهد الماء فقط إنما لرائحة الحياة المنبعثة من هذا المكان بعمق ، جازفت واقتربت

منهن ، كان لإحداهن وجه نابض بالحياة وعينان شهويتان ، رفعت الجرة عن النبع ووضعتها على كتفها ، كانت أجرأ واحدة من المجموعة :

-ما اسمك . .قلت لها . .

-رابعة . . قالت بصوت ناعم غنج ، وكانت شديدة النحافة .

-تعطيني ماء . .

-أنزلت جرتها وضحكت ضحكة قوية . . .وناولتني إياها . كان لها صدر صلب وأرداف قوية .

بينما أخذت الصبايا اللواتي يرافقنها بالضحك والممازحة ، ورششنني بقليل من الماء ، وضحكن ، ثم تجمعن حولي مستقويات ببعضهن ، وبعضهن كن يتلفتن لئلا يرانا أحد من القبيلة .

لقد وقفت وجهاً لوجه أمام هؤلاء الصبايا دون أن أعرف ماذا أقول ، وقد وقفن هن أيضاً أمامي ، وما كان بيننا غير التطلع على بعض والضحك والابتسام ، كنا نضحك ونضحك دون أن نقول شيئاً ، وكان يجذبني هذا الخفر والاحمرار واللمعة في العينين ، كانت تجذبني هذه الأصوات المتكسرة التي ما إن تريد أن تقول شيئاً حتى تتهشم ، ضحك يعبر عن نوع من الفرح باللقاء ، ونوع من الابتهاج الذي يحدثه وجود غريب مرغوب ومشتهى . ثم استدارت ومشت مع رفيقاتها وهن يمشين ويتلفتن ويضحكن .

-٧٠-

في الليل وما إن نظفت سلاحي وأردت إطفاء الفانوس والنوم ، حتى دخلت علي رابعة إلى الخيمة ، كانت قد لفلفت وجهها بوشاح ، وقفت أمامي تماماً وخلعت عن وجهها وشاحها ، فارتبكت قليلاً ، نهضت من مكاني ، فأردت الكلام فتلعثمت ، لم أكن أعرف ماذا سأقول لها ، وصحت بها بصوت مندهش :

-رابعة . .

لم تقل لي شيئاً .

طلبت منها أن تجلس . فجلست على البساط ، وخلعت عن شعرها الإيشارب الأحمر الذي كانت ترتديه ، كانت عالية النهدين ، وذات رسغين كرسغي جدي ، ولها بشرة خصبة ، وصدر نافر متماسك وصلب ، واللحم حول الفم ملآن .

لم تكن المسافة بيننا قريبة ، ولكني كما لو كنت أشم من جسدها رائحة قوية ، إنها رائحة الحياة ، كنت أشم من هذا الجسد الصلب والنابض رائحة الأرض وهي تنبعث من الطراوة التي تحيط بالعظام ، كنت أشم رائحة متوحشة منها جاذبة

نحوها وقوية . بصعوبة أتكلم ، وبصعوبة أتنفس أيضاً ، وشعرت لحظتها بأن كل حواسي قد تحفزت إلى الدرجة القصوى ، لقد صعدت إلى أعلى ما يمكن ثم توقفت في نقطة واحدة ، وكنت بالكاد أستطيع الحركة بسبب ثقل في وركي وفي أصلابي .

ثم تكلمت رابعة بصوت خفيض ومتقطع ، لم أفهم من كلامها أشياء كثيرة ، كان صوتها الخفيض مزيجاً من رغبة متوقدة ترعش لها شفتيها ، وذعر واضح في عينيها ، ولكن ما فهمته من كلامها أنها تريد أن تتلمس عذراً لمجيئها ، قالت إنها أرملة جابر بن خلف ، وكان أحد شباب بني جابر من آل مضر ، وقد قتله جساس في الصيف الماضي ، كان قد التقاه في الصحراء عند تل احماد وفي إطار العداوة بين القبيلتين كانا قد تجابها معاً ، فشد عليه جساس وأسقطه من فرسه وأطلق عليه النار وسلبه سلاحه ، وسلب السلاح هنا هو إمعان في ذل بني جابر كما قالت ، ومنذ ذلك اليوم وهي تنتظر من يأخذ لها بثأرها ، وينتقم لشرف زوجها القتيل وشرف بني جابر .

ثم قالت لي إنها ما جاءتني هذا اليوم إلا لشيء واحد ، هو أنها تبحث عمن يقتل لها جساس ، وأن زوجها لن ينام في القبر ما لم يأخذ أحد بثأره ، وهي تترقب هذا منذ عام كامل ، فلم يظفر أحد به ، وبينما كنا في تلك اللحظات حتى دخل علينا أحد رجال المخيم ، وهو رجل هزيل شديد النحول يحمل على خاصرته سكيناً في غمد من البرونز ، أما جبهته فكان يزيدها طولاً إلى حد كبير غترته التي يرفعها عن جبينه ، ومن

الواضح أنه كان يتبعها ، أو على الأقل كان يراقب خيمتي ، فرآها دخلت ودخل وراءها .

كان قد دخل علينا الخيمة وعيناه يتطاير منهما الشرر ، فقفزت عليه وطرحته أرضا وأخذت السكين من خاصرته ، بينما هربت رابعة بسرعة شديدة واختفت مثل سهم ناري ، وخرج الرجل وراءها وهو يزبد ويشتم .

-٧١-

في صباح اليوم التالي دخل علي الرجل ذاته الذي جاءني أول وصولي المخيم ، مع الرجلين الذين التقيتهما في مضيف الشيخ ، دخل علي بعد أن سلم علي من بعيد ، ومن دون أن يصافحني ، فعرفت أنه غاضب مما حدث ليلة أمس ، وكان يرافقه الرجلان كلاهما اللذان كنت رأيتهما من قبل في مضيف الشيخ ، وكانا قد جاءا من قبل معه أيضا .

نهضت أنا من جانبي للقائهما ، وقد كنت قابضاً على سلاحي بيدي ، وجلست قبالتهما ، شعرت تلك اللحظة ومن عيون الرجال الثلاثة الجالسين أمامي ، كما لو أن حركة تمرد عارمة ستحدث ، أو شيئاً مما يطلق عليه ثورات وعصيان القبائل ، وسأكون دون شك أنا أول الضحايا ، ولكن نبرة الشيخ كان فيها الكثير من الحكمة ، حتى وإن بدأت جملته الأولى بتهديدي ، على النحو التالي :

-لنا حلف معكم . . وحنا نحترم كلمتنا . . بس انت تجاوزت هذا على نسواننا ولو كان شخص غيرك ما طلع عليه الصبح . .

- أنت رجل حليم . . ما كان اللي سويتو يغضب رب ولا بشر . . المرأة جاءت لي حتى تحكي لي عن مأساتها ، بمقتل زوجها على يد جساس . .

-شوف يا ولدي حنا اجتمعنا بمضيف الشيخ ، انت باق بيننا وما نعرف لأي حين . . لا نأمن عليك من أزلامنا ، ولا نأمن على نسوانا منك . . الحل هو إما أن تتعفف أو ترحل .

-طيب أنا باق هنا حتى نطلع بحملتنا على جساس . . . وبلغ الشيخ هذا عني . . . أن ما يرى مني أي شر على نسوان القبيلة ولا على أزلامها .

وقد كنت صادقاً في كلامي ، فبالرغم من كل هذا الإغواء الذي حدث لي ليلة أمس هنا في هذا المخيم ، ولكن الشيء الأكيد هو أن لي هدفاً واحداً ، هو القبض على جساس واقتياده إلى المحكمة العسكرية التي ستنصب له ، ولسببين :

الأول لقتله رفاقي في فصيل غارة الصحراء ، وثانيا هو أن عودتي خالي الوفاض إلى الوحدة العسكرية ليس أمراً حكيماً ، فدخولي وحدتي العسكرية وحيداً بعد مقتل الجميع ، ومن دون أن يكون هنالك شاهد واحد على الأقل معي ، وفي هذه الظروف من الحرب بين البلاد والحلفاء ، سوف لن يجعل ضباط وحدتي ، أو ضباط الاستخبارات الذين انتدبوني لهذه المهمة مرتاحين ، سوف لن يفكروا إلا بأحد أمرين ، إما أني تآمرت مع الأعداء ، أو هربت من تأدية الواجب ، وفي هذه الظروف من الحرب لن يكون الأمر هيناً ؛ لذا كنت ملزماً من

الناحيـة الواقـعيـة أخـذ شـاهد واحـد على الأقل مـعي إلى الاستخبارات العسكرية ، وسـأقول لهم إن المهمة نفذت على الرغم من الخسـائر الفـادحـة التي قـدمناها ، فلم يحسب أحـد حساباً صحيحاً لهذه المعركة ، وهذا ما حدث .

ولكن لم تكن الأمور تجري مثلما قررت ، ففي الوقت ذاته ، أو أكثر منه بقليل ، وما إن أطفأت الفانوس وآويت إلى الفراش ، حتى شعرت بشخص ما قد اقتحم علي الخيمة ، في البداية كنت تجمدت في مكاني ، شعرت بخوف مريع قد قبض على جميع مفاصلي ، شعرت برعب حقيقي ذلك أني فكرت ماذا لو كان أحد أفراد القبيلة جاء لينحرني في هذا الليل ، ورميي في الصحراء ، ولكن وقبل أن أنهض شعرت بيد رقيقة تمسني ، كانت يد رابعة دافئة في الليل وقد جست لي كتفي وصدري ، وحين وقفتُ وقفتْ هي أيضاً إزائي ، وسمعت أنفاسها الحرى والعالية وهي تلفح لي وجهي .

في هذه الساعة من الليل لم تكن بحاجة لأن تشرح لي سبب وجودها ، أو تبحث لنفسها عن عذر لوجودها ، فمددت يدي ورفعت نار الفانوس المعلق في الخيمة ببطء ، كان النور الأصفر يلقي على شعرها الداكن الأجعد الذي رفعته أعلى جبينها نوراً باهتاً ، وعلى ذقنها البارز الصغير ، وأنفها المستقيم ، وكان خداها البضان يهتزان ، وعيناها السوداوان الوحشيتان

تنظران في عيني مباشرة، وكنت ألحظ فيهما رغبة عارمة، من دون أية مقدمة، أسقطت الثوب عن جسدها، لقد أرادت أن تلتهمني بعينيها الوحشيتين.

- أحد شافك؟ قلت. لم تجب.

وخرجت من الخيمة، وألقيت نظراتي الفاحصة على المخيم، فوجدته خالياً، وكانت بعض النسور تحلق في الفضاء، بينما حراس المخيم نائمون، وكل شيء ران عليه سكون عجيب، ثم عدت.

- هل تعتقدين أن الجميع نائم؟

وبدل أن ترد على سؤالي، ألصقت جسدها بجسدي، التهمتني وهي تبحث بشفتيها المبللتين عن فمي، وشعرت من داخل جسدها النحيف بطاقة هائلة من التهيج والانفعال، لقد كانت متأججة مثل لهب، وكنت أنا أرد عليها بحماسة كاملة، وبعد دقائق استسلمت لتقبيلي ومداعباتي، ثم استلقت في الفراش على ظهرها وفتحت ساقيها، وقد تمددت فوقها بكل ثقلي، وأحسستُ بها تتأوه، مثقلة بلذة لا يمكن تقديرها، أما أنا فقد شعرت بأنها تفككني قطعة قطعة، لقد شعرت بأني أصعد إلى أعلى نقطة يمكنني صعودها، كنت أعانق الصحراء برائحتها الحقيقية، رائحة الماعز وزفر الحليب والأرض والخبز والرمل والشعاع ورائحة الخيل والذئاب حتى غبت بنوع من النشوة الكونية، وفي النهاية كان علي أن أصرخ مثل ذئب، أصيح بكل صوتي من النشوة، لم تكن نشوة

عادية ، إنما شيء إعجازي لم أشعر به من قبل أبداً ، وبقيت ملتصقا بجسدها بقوة ، ذلك أن فزعي قد تبدد مع تبدد قوانين الكبت ، وشعرت حينها بأني وصلت إلى الافتتان الكبير بالجسد ، وهذا هو سر التحولات ، بل بدأت أمزج بين الرغبة القوية والعاطفة المحتدمة ، وأمزج بين الممارسة الحسية والحب ، حتى تراجعت عني كل قوانين حراسة الشهوة وحراسة العوز والكبت ، لقد شعرت أن جسدي عاد لي بعد أن أنكرته علي حياتي في المدينة .

-٧٣-

إن أغلى الساعات التي عشتها في تلك الفترة هي التي كانت مع رابعة ، لقد انغمست وللمرة الأولى في حياتي بمتع الحس ، وتحللت من الالتزام بصرامة الأخلاق ، وكانت هي تفيض على بولائها المقدس فتمنحني كل لذة ملعونة ، ذلك أن البدوية لا تعرف حدوداً للشهوة ، فهي غاوية ومغوية معاً ، تذهب إلى أقصى حد من المتعة كما لو كانت خارجة من نشيد الإنشاد ، كما لو كانت ابنة الديانات القديمة التي تعرف كل أنواع الجمال الحسي ، فكنت أنتظرها كل مساء قبل النوم مثل أسير في الخيمة ، فلم تعد لي اهتمامات بأشياء كثيرة في هذه الحياة الجديدة علي ، سوى شيئين :

جساس الذي أريد القبض عليه واصطحابه معي إلى القيادة ، ورابعة التي كانت تطوقني مثل الرمال بصورتها التزيينية ووشومها وخشونتها ، وكانت هذه الصورة في الواقع هي التي تهيجني أكثر من غيرها ، وتجذبني نحوها بصورة أقوى لأنها صورة يومية لزمن الصحراء ، ذلك أن الأشياء الصحراوية التي كنت أتذوقها فاقت يومها كل حالات مزاجي ، بل هدمت

جميع الظنون التي كانت تنتابني ؛ وذهب بي الأمر أن ألقي بنفسي بشراهة على الجنس .

وربما كان السبب هو أني شعرت أن الفزع قد تحول مع رابعة إلى نشوة عارمة ، لقد تحول الخوف إلى نوع من الافتتان ، شيء من الإيروسية التي لا تحد ، نوع من الفرح الإيروسي الذي يصعد ولا يكدره أي شيء ، لقد شعرت أن العلاقات الجنسيّة عند البدو لا يشوبها أي أثر لخطيئة ، أو حتى لإحساس بالذنب ، فيما يحكمنا في المدن نوع من الذعر الذي تفرضه قواعد المراتب الأخلاقية ، بينما هم لا يعرفون هذا التّزمّت الطهراني الذي نعرفه أبداً ، إلا من جانب أن المرأة هي امتلاك ، ولكن الجنس هو نوع من انتصار حاد لكل أساليب المتعة ، والبدوية حتى وإن لم تقع في الحب فهي تعرف جيداً فن الهوى ، وتعرف جيداً معنى المتعة ، ولا تخلطها مطلقاً بالفحش .

ومثلما تتعاضد القوة الجسديّة مع التفوّق الحربي ، فإن اللذة لا تخضع أبداً لمعنى الفضيلة ، ولا ترتبط الإيروسية بالخوف ، بل تتحول الأرض المفروشة جيداً في الخيمة حيث تجلس رابعة شبه عارية إلى سرير متع حقيقي ، ويتحول الفراش الصغير إلى مأوى كبير لكل أنواع الشهوات ، وتندحر فيه كل أنواع الحشمة .

فالبدوية تحدق بعينيها الشهوانيتين بعمق ، ولا تحولهما إلى زاوية ميتة أبداً ، إنها تستسلم إلى الهزة العنيف التي لا تبقي

من الأجساد بعدها سوى أعضاء منهكة ، أما المداعبات فهي لا تعدو أن تكون وشاحاً خفيفاً فوق الوحشية الضارية ، لقد أشعرتني من اليوم الأول أن الفزع يتحول إلى شهوة تنضح ، وأن الخضوع هو مرتبة من مراتب التصوف ، حيث يمكنك أن تسلم نفسك طواعية لهذه الخربشات الممتزجة بالظلام ، والرعشة المتسمرة بضوء الفانوس ، وبالشهقات القوية التي تتجلى في نظرة العري .

-٧٤-

في يوم ، وفي الصباح كان قد التحق بي خمسة عشر فارساً ، جاء كل واحد منهم على جمله ، وقد حملوني على جمل أيضاً ، ثم انضم إلينا ثلاثة آخرون ، من حرس الشيخ ، صاروا يواكبوننا كحراس ويغنون لنا طوال الطريق . كانوا يغنون أغانيَ حزينة ، تنسحب من تموجات هابطة وتنتهي بأنة ، وكالعادة فقد كانت أصواتهم تحرك ارتجافات عديدة في عالم الأحجار اليابسة هذا ، وأصداء طويلة غير متوقعة في هذا العدم الصامت ، كانت الأغاني تغمر بإيقاعاتها الهواء ، وتجعل الطبيعة أكثر اخضراراً ، تجعل الأرض تضوع منها روائح شبيهة بأريج تحت الشمس .

**

عاد حراس الشيخ الثلاثة بعد أن أوصلوني إلى نهاية التلال الحمراء ، وهي علامة على تكريم الشيخ لي ، ثم هبطت قافلتنا إلى منحدر صغير حيث استعدنا ثقتنا التدريجية في الطريق . وعند الظهيرة عثرنا على صحراء الرمال العميقة والمتساوية ذات النباتات الصغيرة بخضرتها الشاحبة التي تضوع

بالعطور تحت أشعة الشمس القوية .

أقلنا هناك قليلاً ، وأصبنا قليلاً من مخيض اللبن ، ثم واصلنا مسيرنا حتى الغروب ، حيث عسكرنا وسط بعض النباتات الهزيلة ذات العطور العالية ، وأحاط بنا من جميع الجوانب الفضاء اللامتناهي ، بعد أن تحررنا من الموضع المحصور بين كتل الغيرانيت الحمر الباردة .

قال مريوش وهو أكبر البدو المرافقين لي سناً ، ولا يتجاوز الثلاثين :

سننام الليلة هنا ، وفي الصباح سنغير على منور ، فهو يختبئ هنا في هذه المرتفعات المقابلة لنا ، وإذا عرفنا منه موضع جساس ستكون خطوتنا القادمة سهلة ؛ لأن جساس لا يبتعد كثيراً عن هذا المكان . كان لمريوش لون برونزي جميل ، ولوجهه هيئة نبيلة ، ويلبس في السبابة خاتماً من نحاس .

وكنا أمضينا الليل كله عند كانون النار ، جلسنا صامتين نشرب القهوة وندخن ، ومن وقت إلى وقت يصدح صوت مريوش بالغناء ، عن الفراق والأهل والحبيبة والشجاعة والإقدام وهي الأشياء التي غالباً ما يغني عنها البدوي .

**

كنت استسلمت لسحر الليل ، وجلست أفكر بما سيكون عليه الغد .

ما كنت أريده حقاً في ذلك اليوم هو القبض على جساس ، لم يعد الأمر نسبة لي ثأراً أو انتقاماً ، أبداً ، إنما أردت

أن أعرف هذا البدوي البري ؛ من هو؟ هذا الذي قتل كل هؤلاء الجنود والضباط بذكاء تام ، من أين له هذا الصفاء العقلي والروحي ، هل هو شرير حقاً ، هل هو متمرد ، حر ، ثوري؟ كنت أريد أن أعرف حقاً هذا الشخص ، أن أعرف منه عن نفسه ، فكل الذين سألتهم عنه لم يجيبوني بصورة شافية ، وبقيت شخصيته غامضة عني تماماً ، حتى الاستخبارات ، فلم يكن أحدٌ منهم يعرف عنه تفاصيل كثيرة ، وكان من السهل أن تلصق به تهمة أنه يعمل لجهات أجنبية .

غير أن منْ يعش هنا في هذه الصحراء يدرك أن وصول هذه القوى الكبيرة والأجنبية في هذه الأماكن يكاد أن يكون متعذراً ، كما أن هؤلاء الناس ليس من السهل شراؤهم وليس من السهل أن يبيعوا أنفسهم .

**

ساعة أخرى واستسلمتُ تماماً لهذا الأفق القاسي ، حيث بدت التهديدات غامقة في هذه اللحظات الليلية ، كنت أشعر بأن سماء الغسق تضيء حاشية تعلو تدريجياً إلى السمت الساكن والمنطفئ ، إنها الساعة الغامضة الساحرة حيث تبدأ نيراننا بالتوهج في شفافية لا مثيل لها ، وهنالك التماعات وشرارات نارية على الخلفية الغامقة مصحوبة بدخان أبيض تتصاعد نحو النجوم الطالعة .

ما هي إلا ساعات ونهضت إبلنا بعد أن تحررت من أحمالها وسروجها العالية ، وأخذت بملامسة الأشواك الهزيلة ،

وراحت ترعى من النباتات الجافة ، كما لو كانت خرافاً عجيبة لها هيئة غير مؤذية ، وبطيئة ، إنها الساعة التي يهم فيها البدو الذين معنا بركوب الإبل ، والتوجه نحو أسر منور .

-٧٥-

كان الجمل يتحرك حركة متناسقة إلى الأمام والأعلى ، أما عنقه الطويل ورأسه فقد كان يمدهما يميناً وشمالاً ، كأنه يسبح في الفضاء ولا يمشي مشياً ، وما إن أفتح عيني بين حين وآخر حتى يطوقني شعور بأني أسير فوق مرتفع شاهق ، كأني أنظر للكائنات التي تحتي من علو عمارة بعدة طوابق ، لقد كنت أرى الناس وهم يصغرون ويصغرون حتى تنعدم أهميتهم ، قلت في نفسي ربما تأتي من هنا كبرياء البدوي وغطرسته ، إنه ينظر إلى الناس ، وإلى الناس جميعاً من فوق علو شاهق ، من فوق مرتفع ، فلا يراهم إلا صغاراً .

إن هذه النظرة تمنحه القدرة على معرفة سر الأشياء ، إنها نظرة طائر متعال يرى الأشياء من بعيد ، عين الطائر ، لا عين الدودة في المدينة ؛ كلما اقتربت من الأشياء أخطأت في رؤيتها وتقديرها .

**

من فوق الجمل شعرت بتوحد كبير مع هذه الوحشة المنفتحة على كل شيء لا نهائي ولا محدود ، لقد شعرت

بالنظر إلى العالم من أعلى السنام ، عندها فقط شممت رائحة الرمال وأريجها الذي يختمر تحت الشمس ولأول مرة .

ولأول مرة أيضاً كنت شعرت بنشوة سخية تحت شعاع الشمس الممنوح بلا حد ، حتى صرت أترنح لفرط الحرية التي منحتني إياها هذا الأفق المنفتح ، شعرت لحظتها بالتحرر الكبير حتى من بدني ، وكادت روحي تطفو فوق الأرض كأني ذاهب للقاء الحب .

لم يكن ساعتها درس الصحراء درساً كبيراً ، ولم تكن فلسفة مطلوبة من أجل العظمة ، إلا أن هذه المتعة بدت بسيطة وسهلة وكل ما عداها أصبح باطلاً ، إنها ليست الشمس وحدها ، ولا العطور وحدها ، ولا الوحدة وحدها . . إنما هي هذا التحرر اللا محدود من كل قيد ، وأول قيد هو الأرض أو الوطن .

لم أكن أسعى لحظتها إلى أن أكون وحدي إنما كنت وحدي بالضبط ، كنت مثل ذلك الذئب المتوحد في البرية ، والذي كنت أقرأ ، كلما مررتُ به من بعيد وهو يلاحق القافلة ، أسارير ابتسامته الوضاءة التي يشرق بها وجهه ، وجه المتعة والنشوة واللذة لأنه مطلق ووحيد . كنت أسعى لأكون البدوي الذي يترك النظام ويسفح نفسه في فجور الطبيعة ، ويمرغ جسده في حبات الرمل اللا محدودة ، إنها وحدها التي تأسر خلاياه ، كنت أريد أن أفني نفسي في هذا الزواج الغريب والذي يظهر جلياً في الصحراء ، إنه الزواج بين الرمال والسماء ، بين

الخرائب والربيع ، بين الذئب والقافلة ، بين الله والطبيعة ، كنت أريد أن أكون جزءاً من هذه الرمال التي شهدتُ فيها الحقيقة وقد تجردت من ملمسها الصقيل الذي فرضته عليها المدينة . الحقيقة التي أفاضت بخشونتها بين يدي ، لأكون بين الضلالات ، متعبداً وحيداً لك يا ربي وأنت موجود في كل ذرة من ذرات الكون .

**

لم أعرف الله في المدينة إلا متوحداً في صورة القائد ، وصورة الرئيس ، وصورة الحجر والإسمنت والأحجار ، أما هناك فعرفت إله الصحراء وهو إلهي ، هذا الراعي العظيم الذي يطل في فجر الرمال ، وقد سفحت أزهار إبر الراعي الحمراء دمها على قدميه ، إنه هذه القوة القديمة التي تعود بي إلى قرار الأشياء الخربة ، حيث أتنفس على إيقاع واحد مع تنهدات العالم اللجبة ، أشعر بنفسي وأنا معه منكفئاً بين الروائح الوحشية وموسيقى الحشرات المتناومة ، أصل مع الله إلى سر النشوة البعيد ، ويطمئن قلبي إلى يقين غريب .

الله الذي أجده في تنفسي في الصحراء وأنا على الجمل الذي يتسلق التلال الواحد تلو الآخر ، أجده في كل حبة رمل ، أجده يتجلى في الخرائب ، وفي الآثار على الرمال ، إنه المكافأة التي تمنحها إياها هذه العظمة القاحلة ، هذه العظمة التي يخيم عليها الآن صمت كبير وثقيل لا صدع فيه .

في الصباح وصلنا إلى سفح المرتفعات الوردية .

قال مريوش : هنا يمكن نقضب منور .

فبركت الجمال وهبط الرجال ليهيئوا بنادقهم ، ثم ربطوا جمالهم في الأسفل ، وصعدوا نحو المغاور بحذر شديد . لقد كنا على طريق لاحب بين مرتفعات واطئة وليست عالية ، ومن الواضح أن مجموعة من الأشخاص كانوا هناك ، وهم لصوص وقطاع طريق وسلابة ، فصاحوا بالصوت :

- منور . . منور حنا عمامك من بني جابر . .

ثم سمعنا بعدها ترحيباً من بعيد . .وقد صعدنا السفح وانطلقنا بين الصخور وكان منور في استقبالنا ، وقد أنزل بندقيته وفتح ذراعيه ، وكان هنالك شخصان يقفان وراءه ، ولكن ما إن رآني ، حتى فغر فمه ، ثم استدار بسرعة وحاول الهرب ، إلا أنهم ركضوا بسرعة وراءه . . وألقوا القبض عليه . .

اثنان من أبناء عمومته مدداه أرضاً ، بينما تخطّى مريوش عند رأسه وهو يحمل سوطاً ، ساطه في الأول بضربة على قدميه ثم بدأ بمحاكمته ، ونحن نقف عند رأسه .

قال له : بعثتك القبيلة مع الجيش حتى تدل على جساس .. بس انت خنت القبيلة وخنت الجيش .

فبدأ يصرخ ، ويتوسل ، وينكر أن له علاقة بالموضوع ، أي أنه لم يخن ، ولكن الجيش ما كان بإمكانه أن يواجه جساس ، وأنهم كانوا مجموعة من الجهلة بفن الحرب .

مع أن كلامه كان ينطوي على قسوة كبيرة ، ولكنه كان يحوي قدراً من الصحة ، وحين التفت إليَّ مريوش ، وطلب مني أن أقدم له دليلي على خيانة منور ، في الواقع لم أملك أي دليل على ذلك ، ولكني ذكرته بأنه لم يتكلم بالأرقام بشكل صحيح ، حينما كان يسأله الضابط عن عدد العدو قال خمسة ، بينما هم ثلاثة ، فاحتج منور ، قال إنه ذكر الرقم متضمناً الجنديين ، وكان متعجباً من الضابط لِمَ لم يحسب معهم جماعته! وحين قلت له إنه هرب في اليوم الأخير ، ذكرَ أنه أدرك أن «جساس» منتصر عليهم ، وأنه سيُذبح لو تم إلقاء القبض عليه .

غير أني لم أقتنع ، كما أن مريوش لم يقتنع أيضاً ؛ لذا طلب أن نعمل له بشعة لكي يعرف فيما إذا كان صادقاً أم كاذباً .

**

ثم بدأت البشعة وهي لإظهار الجرم المنكور ، قالوا له أنت تنكر .

إذن نحن نعرف الحقيقة من خلال البشعة : وهكذا بدأ

مريوش بإضرام النار ، ثم أخرج من جراب معه محماس البن ، ووضعه على النار وأخذ يقلب به يميناً وشمالاً حتى احمر ، ثم أخرج المحماس وهو يتأجج وصاح بمنور :

- ابشع . . ابشع . .

فمد منور لسانه ليرينا أنه سليم ، ولكي نتمكن من التمييز بين الحالتين قبل البشعة وبعدها ، ثم قدم له المحماس إلى فمه ولزقه على لسانه ، حتى جز الصوت وخرج البخار من اللسان ، وصرخ منور صرخة عالية ، وقال :

- خاين . . خاين . .

وأخذ يتلوى على الأرض ولسانه يتدلى من فمه ، ثم صاحوا به ، وين نكضب جساس؟ وين نكضب جساس . . احكي . . احكي . .؟

فأشار لهم عند الصخرة السوداء في المرتفع الثاني ، فتركوا أحدهم مع منور ليأخذه إلى القبيلة ، وهبطوا بسرعة إلى المنحدر نحو الجمال الباركة ، حيث بقي هناك اثنان من أجل حراستها .

صعدنا الجمال واندفعنا بقوة بموازاة المرتفعات ، وقد أعددنا بنادقنا وسكاكيننا متهيئين لمعركة ضارية ، وكنت أنا أيضاً ، تأكدت من الرصاص في البندقية ، وأعددت نفسي لهذه المعركة التي ستنشب أخيراً مع جساس وبني جدلة ، ومع أني كنت أفضل القبض على جساس ، كما كان البدو الذين معي أيضاً ، يفضلون القبض عليه وتحميله إلى الوحدة العسكرية ، لتتم مقاضاته هناك حسب القانون .

**

سرنا حوالي ساعة في السهل المحاذي للمرتفع تحت الشمس الحارقة ، وكانت الرياح تأتيني باردة في الصباح ومنعشة ، وكانت جمالنا تدهس النباتات الشاحبة العطرة النابتة بجانب المرتفع ، ومن بعيد كان امتداد التلال الحمراء رتيبةً مثل البحر ، متغيرةً مثله .

عرفت من بني جابر أن جساس يقضي أيامه هنا بين كتل الغيرانيت العملاقة ، فأناخت جمالنا وترجلنا . كل يحمل بندقيته بيده متهيئين للمعركة . سرنا في دهليز كئيب ، ولا

أدري لماذا شعرت وأنا أسير فيه أن الموت يكمن هنا ، الموت المطلق بجبروته وصمته ، وعند وصولنا إلى الأعلى لاحظت الثغرة التي ينبغي علينا المرور منها إلى الداخل . وفي تلك اللحظة بالذات ظهرت لنا زمرة من اللصوص على ظهور الجياد يحملون الرماح ، وقفوا على الرمل الذي يفصلنا عن المدخل ، ثم انقض أفرادها علينا ، ولكنا كنا متأهبين لهذا الظهور المفاجئ ، فقد كنا نحمل بنادقنا بأيدينا محشوة بالرصاص ، ومسدساتنا في أحزمتنا ، تقدمنا نحوهم فتوقفوا فجأة .

لقد شعروا بأنهم مغلوبون لا محالة ، فالبنادق مصوبة عليهم ، ونحن أكثر من عشرة بينما كانوا هم أربعة . أمرهم مريوش بإلقاء الأسلحة ، فألقوا بها أمامه ، وتركونا نمر .

وما إن اجتزنا الشق حتى وجدنا أنفسنا في دهليز من الممرات التي تلتف حول الصخرة ، لم تكن هذه الممرات أو الأزقة محفورة على نحو منتظم ، بل إن أقدام العرب والجمال والماعز حفرتها عشوائياً بين هذه الأنقاض .

**

وما إن دخلنا حتى وجدنا جساس نائماً ، وكان اللصوص الأربعة ، وهم من حراسه ، قد غادروا المكان .

انقضوا عليه وهو نائم ، حين رفع رأسه عرفته ، إنه هذا الفتى الذي هبط بقوة أمام مخيم الشيخ بحصانه ، وكان ينظر نحوي بحقد وبعينين من نار . وقد عرفني مباشرة ، غير أن بني جابر كانوا ملثمين تماماً ، بينما تركت يشماغي محلولاً على

كتفي . نظر إلينا ، وقال :

- من أنتم؟

وقد اندهشت ؛ إذ كان شاباً يافعاً في العشرينيات من عمره ، أسمر الوجه سمرة صافية ، شعره ناعم منسدل على جبينه ، وله لحية صغيرة على الحنك ، وشاربان أسودان ناعمان ، أما عيناه فكانتا سوداوين كبيرتين ، ولهما رموش طويلة ، وكان نحيفاً جداً . قلت في نفسي : يا إلهي هذا الذي هزم فصيل غارة الصحراء؟!

لم يجيبوه هم ، لكنني أنا أجبته :

- فصيل غارة الصحراء يا جساس . . كنت تتصور أنك تنجو بفعلتك!

- مين غارة الصحرا؟

- غارة الصحرا اللي قتلتهم عند تل أحماد ، وقبلهم الضباط الثلاثة اللي ذبحتهم أنت وعصابتك .

- مو فاهم على شنو تحكي؟

قال مريوش : نعملوا البشعة .

ارتبك قليلاً ، وصاح بنا :

- اعملوا البشعة . .

وهكذا بدأ مريوش بإضرام النار ، ثم أخرج من جرابه محماس البن ، ووضعه على النار وأخذ يقلب به يميناً وشمالاً حتى احمر ، ثم أخرج المحماس وهو يتأجج وصاح بجساس :

- ابشع . .ابشع . .

فمد جساس لسانه ليرينا أنه سليم ، ولكي نتمكن من التمييز بين الحالتين قبل البشعة وبعدها ، ثم قدم له المحماس إلى فمه ولزقه على لسانه ، حتى جز الصوت وخرج البخار من اللسان ، إلا أن جساس لم يتأثر ، ولزقه على لسانه مرة أخرى ، ولم يتأثر ، والثالثة ولم يتأثر .

فالتفتوا إليَّ وقالوا : إنه لم يبشع . .

فقلت لهم : وما معنى ذلك؟

قالوا : يعني إنه ما فعلها .

قلت لهم : «اتركوه لي ، ما معنى البشعة؟ أنا رأيته بعيني وهو يذبح ضباطنا» . وحدث جدل بيني وبين بني جابر ، إلا أنهم احتكموا أخيراً إلى رأي مريوش الذي قال لي إنه يتركه لي ، آخذه إلى الوحدة العسكرية وهنالك يخضع للقضاء ، إلا أن جساس بقي يماطل ، ويحرضهم عليَّ ، وكانوا هم في البداية مترددين ، غير أني أصررتُ على حمله معي ، وهكذا أصعدته معي على الجمل ، موثوق اليدين إلى الظهر ، وأمسكته من دشداشته بقبضتي بطريقة كارهة ، وأفهمته أنه لن يفلت من العقاب ، وأريته بندقيتي ، وقلت له : «سأسيح دمك هنا لو فكرت بالهرب» ، بينما كان ينظر إليَّ بعينين حاقدتين ، يتطاير منهما الشرر .

التفت إليَّ وقال إنه هو السبب ، وكذلك قبيلته ، فلو لم يكن ما كان لما أقدمت أنا على أسره ، وحين سألته كيف ، قال إني كنتُ ضيفاً عند قبيلته وهو احترم الضيافة ، فلم أجبه ، ثم قال إني لا أعرف العهود ولا المواثيق وإن الجيش وأفراد الجيش كلهم أبناء زنى ، لأني أكلت من خبز أمه وتغطيت بإزار زوجته

ولو كان لي أصل لأطلقته ، غير أني لم أستجب .

ثم قال لي إنه عطشان ويريد أن يشرب ماءً ، فلم أستجب له .

**

بقيت القافلة تسير معي ، وجساس أسيري ، ونحن نتجه إلى نهاية الصحراء من جهة السماوة ، حتى وصلنا منطقة قريبة من الشارع العام ، فبركت الجمال بنا ، أخذوا جملهم ، وانحدروا نحو الغرب ، بينما أنا أخذت أسيري بيدي ودفعته أمامي موثوقاً ، وهو يتلكأ ويتردد ، ويتلفت ، يحاول أن يجد وسيلة ما للهرب ، وأحياناً يتكلم بحدةٍ كي يستفزني .

عبرنا الطريق ، وحين جلسنا على الشارع العام من الجهة الأخرى أصبحت الصحراء قُبالتنا ، وكانت الشمس الغاربة تخضب بنورها الأرجواني السماء ، رأيت جساساً وهو ينظر إلى الصحراء البعيدة وكأنه يراها للمرة الأخيرة ، ينظر نحو الكثبان الحمر البعيدة ، وشعاع الشمس المائل الذي يضفي عليها أكثر من أي وقت مضى مظهر البحر الساكن حيث لا حركة سوى حركة الظلال ، وهي تزداد كثافة كلما ازدادت الشمس أفولاً ، أما الخلفية الصوتية لهذا المشهد فقد عبرت عنها الصورة العجيبة للجِمال الوحيدةِ السنام في قافلة بني جابر التي كانت تبتعد عنا ، ورجع أصوات نباح الكلاب التي تلاحقها ، ثم هنالك صياح الرجال الذي كان يقطع هذه اللجاجة المبهمة المتبادلة .

**

مرت شاحنة ، فأوقفتها .

- أنا من كتيبة المغاوير الثالثة والعشرين وأريد أن أصل إلى القاعدة العسكرية في السماوة .

قال السائق وهو كبير السن وإلى جانبه عائلته ، وفي الخلفية أثاث المنزل كاملاً :

- أوه . . . ما عاد المعسكر موجوداً ولا القاعدة . . .هدمتها طائرات الحلفاء ، وها نحن نهاجر من هذه المناطق التي تدور فيها معارك دبابات بين الحلفاء والحرس الجمهوري . . أحسن لك أن تهرب على الجسر . . من هناك . .

طلبت منه أن يقلني إلى الجسر . .كنت أظن الجسر قريباً . . فحملت جساساً بكلتا يدي وقلبته إلى داخل الشاحنة مع الأثاث وصعدت وراءه ، وأجلسته أمامي وصوبت بندقيتي إليه . غير أننا بقينا أكثر من نصف ساعة حتى وصلنا جسر الحديد في السماوة ، كانت هنالك مجاميع من الجنود منشغلين بتنظيف عدتهم وأسلحتهم ، وكان لهيب النار يتصاعد من البنايات القريبة ، وصوت الطائرات يخترق الفضاء ، ومن بعيد ، حيث تدور الحرب البرية كنت أرى دخاناً أزرق يتصاعد على شكل عامود ، تحاول الريح ثنيه .

-٧٩-

حين اقتربنا من الجسر لم أجد سوى الدخان السميك ، السخام الكوني المثقل بالمطر ، لم تكن هناك أية مدينة ، كان ينبغي البحث عنها ، وقد أصابتني خيبة الأمل عندما وجدت ستاراً مسدلاً على عيني من جرّاء الحطام والدخان . الشيء الوحيد الذي تمكنت من تمييزه هو النهر ، كان يجري بتياراته وأمواجه اللا محدودة ، بلونه الطيني الضارب بين البني والرصاصي ، كان يجري بتدفقات تحت جسر مهدم ؛ إذ قصفته طائرات الحلفاء في حربها وأنزلته إلى الماء الذي جرف جزءاً منه ، وكانت الضفاف تصارعُ تياره الفتيَّ بعنفٍ ، وهو يضرب الضفاف بخفقات متتالية .

عندما وصلنا الضفة ، اندهش جساس من مشهد النهر وفتح عينيه الاثنتين وفغر فمه . فما سَبَقَ له ، في حياته مطلقاً ، أن رأى مياهاً بهذه الوفرة ، كانت شفتاه على الدوام ظمآنتين أمام الرمال الجافة والشمس المحرقة ، لم يسبق له أن رأى هذا السخاء في النداوة والرطوبة ، فشعر بالتقهقر والاندحار ، شعر بشيء ينكسر في نفسه ، فيهشم قوته ويحطمه ، لم يستطع الوقوف على الأرض ، فجلس على

الضفة ، وانتحب ، أخذ يبكي وينظر الماء ويمسح عينيه بطرف يشماغه . أول مرة يبكي في حياته ، هذا القاتل المحترف ، المغامر ، قاهر الصحراء ، يبكي وينتحب أمام مشهد الماء .

صرخت به :

- ما بك ؟ لماذا تبكي؟

- كل هذا الماء لكم .

- نعم . .

- كل هذا لكم ، ونحن نقاتل من أجل قطرة واحدة . .

لم أردُ عليه ، فقال :

- لو كان عندنا اللي عندكم ما تذابحنا . .

لم يقبل جساس أن يرفع نظره عن الماء ، كان قد مسح دموعه وصار ينظر الماء في تدفقه وهو يجلس على الأرض مندهشاً من المشهد ، غير مضطرب ولا متلكئ ، ولكنه كان أشبه بفاقد للوعي . .

ثم نظر إليَّ نظرة غضب وقال :

- أنا ذبحت الفصيل ، وذبحت الضباط الثلاثة . . ولو كان في إيدي هسه أذبحك . .

شاهدتُ ، لا نبرة اليأس في صوته فقط ، إنما نظرة الحقد والتشفي أيضاً . لو كانت الصحراء عامرة بالماء ما قتل ، ولكنها جافة وقاسية ، وها نحن نملك كل هذا الثراء ، وقد منحتنا إياه الطبيعة بسخاء ، ونحن نقفز من حرب إلى حرب .

**

لا يعد البدوي العنف عملاً من أعمال السالب كما هو عنف الدولة المنظمة ، إنه عنف جزئي يشكل صورة لاستمرار الحياة ، أما حالات التحطيم التي يلجأ لها من وقت إلى وقت فهي مجرد مسار جزئي للدفاع عن النفس ومحاولات تنظيم الحياة .

ومع أن الروح العـــسكرية هي شكل من أشكال الروح الحربية للبدو إلا أني وجدت اختلافاً كبيرا بينهما هنا ، فالعسكري يمقت الطبيعة ويريد تغذيتها بكل ما هو سالب ، وذلك من أجل تحويل البيئة إلى شكل من أشكال الشخصنة ، وهكذا فإن تفكيره لا ينفك عن إخضاع الآخرين ، وهذا الخضوع لا يمنحه لذة مطلقاً إنما يمنحه الاستقرار فقط ، في حين يبحث البدوي عن التمرد ؛ لأنه يمنحه لذة مطلقة ونشوة كبيرة وهذا ما يجعله يتحمل قدراً كبيراً من الأذى بسبب هذا التمرد المعلن ، فالبدوي لا يخفي تمرده مطلقاً ، إنما يغذيه ويعلي من شأنه .

-٨٠-

«ماذا أصنع؟» قلت لنفسي .

هذه مدننا هدمتها الحرب ، وهي مُغشّاة بالحزن والسواد ، ومغطاة بالبارود والأنقاض والسخام والطين والدخان . شعرت لحظتها بحنين جارف إلى الشمس ، شعرت برغبة جارفة إلى الارتواء المحسوس ، لرغبة في التجدد والانبعاث الجسدي ، ورغبة بالعودة إلى صحراء الساميين ، وكأن العراق الحديث هو سقطة في التاريخ ، لا أكثر .

هكذا كنت أسير مع جساس ، أقوده بعنف إلى مصيره ، دون أن أعلم بأني أقود نفسي إلى مصيري . أعود إلى حياتي الدامية والباطلة كجندي خاسر للحرب ومهزوم ، الجيش قد انكسر ، والعقل المديني الذي علمنا الوقوف على أرضٍ والدفاع عنها انهزم هو كذلك . الحلفاء انتصروا على الجميع ما خلا البدو ، وانهزمنا نحن ، فصيل غارة الصحراء ، أمام البدو!

فبماذا تجيب حياتي أمام هذه الحضارة التي تغرب ، وهذه الصحراء التي تنهض؟ ومن ضجيج الحرب ، كنت أدع نفسي للاستسلام أمام استنارة الصحراء ، إننا انهزمنا وبقينا في عارنا

المتكبر المثير للرثاء، وحتى بحثنا عن الخلود قد وصل إلى طريق مسدود، ذلك الوعد الذي انتظرناه، هل هو في الصحراء؟ هل هو في هذه المغامرة التي لن تكون صعبة عند كل من قدر له أن يكون شجاعاً ولا سيما أيام الحرب؟

**

شعرت بانقباض كبير في المدينة .. .وجساس لا يقبل فكرة فراق الصحراء .

«ما هي الصحراء؟» سألته بطريقة مستفهمة، غير أنه صمت .

كنت أنظر إلى الصحراء كما لو كنت في المركز، وهي فكرة تقديسية وغير هندسية للكون، إنها نوع من النظرة المتعالية من حيث كوني أبحث على الدوام عن الصعود إلى المدينة، والهبوط إلى الصحراء، ما هي الصحراء إن لم تكن هبوطاً إلى السديم والظلمات، والقوى الشريرة التي تهدد الكون بالخراب والدمار؟!

غير أن وجودي بها أشعرني بأنها عالم مكتنف بالغموض، ومحاط بنوع من الجمال العصي على الوصف، نوع من الفردوس الأرضي الذي كان غامضاً نسبة لي، ولأمد طويل، إنها رمال ذهبية وأحجار ثمينة وآثار سومرية وبابلية قديمة، وهنالك في الطرف القصي يأتي إبراهيم وكنزه الأسطوري الذي دحر بروحانيته الشرقية الكون كله، إنه صاحب هذا الكنز الروحي العجيب الذي لم يشوهه ماضي الحضارة الطويل،

والخالي من التناغم الداخلي ، إنه إبراهيم في صحرائه التي حققت لنا كوناً كاملاً ، وعالماً روحياً منسجماً بلا فساد ، ولا رتوش ، ولا عيوب من أي نوع كان ، أما البدوي فهو هذا المتوحش الطيب ، سليل ذرية إسماعيل ، والتراث البابلي والسومري ، هذا الكائن في الصحراء ، الذي وجوده هو غزل بريء ، وأرضه جنة عدن حقيقية .

سألت جساس :

- هل أنت متدين؟

- الدين لكم . . أنتم عباد الأزرق . . يقصد الدينار .

- وأنتم . .؟

- لنا الله والصحراء . .

صفن قليلاً ثم قال لي :

- الدين للمدينة . . يريدون منا أن نتوضأ وحنا بلا ماء ، ويريدون منا أن نصوم وحنا نصوم العام كله ، ويريدون منا الزكاة وحنا فقرا بلا أصفر ولا أزرق (يقصد الذهب والدينار) .

-٨١-

وأنا أقف أمـــام هذا الرجل البـــري الذي يرفع ذراعـــيـــه الشبيهتين بذراعي حطاب في هذا النهار الموحش ، وأقول ماذا علمتني الصحراء؟

كنت أتذكر كل تلك اللحظات في الطواف الحر مع القوافل ، شيء أشبه بالحج ، كانت الطائرات تقصف بغداد والبدوي يغط في نومه الذي لا يقهر ، أشبه برجل عجوز يقطع الصحراء على جمله ، أين هم جوابو الفلاة من دون دليل أو نقطة محددة أو الذين كانوا يرومون الوصول إلى الكثبان وهم أشبه بآلهة ديانات منقرضة ، هل هي في هذه الطرق المختلفة صورة الإنسان ، أم في المسارب المتنوعة في تفكيره ، والضياع في المجهول؟

أتذكر كيف وقفت مرة أمام التلال الحمراء كي أستعيد ذكـــريات إبراهيم في هذه الذرية التي ، منذ آلاف الأعـــوام ، تعيش التغلغل البطيء في الصحراء وفي التاريخ ، إنها ذرية إسماعيل التي تعيش نوعاً من التحرق الوجداني لهذه الصحراء التي هبط عليها الأنبياء ، وهذه الفلاة التي أتت الملائكة إليها لتُرِيَ هاجر المطرودة الينبوعَ الخفي الذي أنعش إسماعيل ، أبتنا

المنبوذ والمقصي في الفلاة ، أبتنا الذي كاد أن يموت عطشاً ، ومن دموع أمه المطرودة ولدت لغتنا العربية التي نتكلم بها ، ومن دموعها كانت الأنهار التي تخرج من فردوس الأرض ، والسماء حيث نزول الملائكة وصعودها على سلم جبرائيل . ففي الصحراء ضياء آخر غير ضياء الحقيقة ، ضياء يستعيد كل يوم ألقاً جديداً دون أن يفقد شيئاً من قوته ، حيث يصبح الجسد على غرار الروح ابناً للشمس .

**

كنت أسير في الشوارع تائهاً حائراً ، لم يعد هنالك من شيء في المدن غير تعفن الحرب ، والجثث المرمية على قارعة الطريق ، وفي العمق صعب علي التوغل ، ذلك أن الحرب الأهلية في طريقها إلى الاندلاع ، وكانت حالات التوجس والغضب سائدة في كل مكان ، فأخذت جساس عند منعطف ينفتح على أرض خلاء توصل إلى الصحراء ، وشارع عام معبد خال تماماً ، ولا تمر به أية سيارة .

فجلست هناك وكان جساس أمامي ، طلبت سجائر من عابر سبيل وصرت أدخن أمامه ، فطلب مني سيجارة هو يريد أن يدخن أيضاً ، فأشعلت له واحدة ووضعتها في فمه ، بينما كان يدخنها بطرف فمه كي لا يصل الدخان إلى أنفه أو عينيه ، ثم تركها تسقط وطلب مني أن أضعها في فمه ، وهكذا حتى أتمها ، بينما وضعت ظهري على الأرض وأخذت أنظر إلى هذا الانفتاح الكبير في الأفق والذي أراحني كثيراً مما كنت

عليه وأنا أسير في المدينة .

ساعة واحدة وبدأتْ ريح الصحراء تهب على دفعات ، وتقذف الوجوه بالرمال التي تحرق الجلود ، ومن فوق الميدان كنت أنظر السماء زرقاء شبه سوداء ، وفي كل مكان يسود صمت وهدوء لا نهائي ، صمت التلال الحمراء ، صمت الرمال الصفراء العميقة .

ماذا سأفعل بجساس ، لا شيء في الواقع ، كنت أحاول أن أسبر عواطفه الداخلية والمتطلعة إلى شيء مُشتَهى ، أو مقزز ، أو غاوٍ ، أو مهدم ، أو إلى رمز ، فلم أستطع ، إنه بسيط ولكنه غير محدود ؛ غير عميق ، ولكن له طاقات مولدة وعميقة . تراه خائر القوى واهناً مستعداً دوما لتلقي المبادرة ، لكنه يتصف بشكل عام بالحيوية والحساسية والورع المخلص الخالي من التزمت ، والكثير من الانجذاب نحو جميع أشكال الحياة ، إنه شرس مثل ذئب ولكنه مملوء بالسعادة ، والهوى ، وجموح الطبع الحازم ، والذكاء المتوقد ، ليست له موهبة خلاقة فحسب ، بل إنها حدسية على نحو عجيب وتكهنية وثاقبة . مما لا ريب فيه أن هذه التجربة كانت حاسمة لتحديد فهمي للعالم المحيط بي ، طوال حديثي مع جساس لم أشعر مطلقا أنه يحمل شعور خيبة وغضب ، كما هو عند الأبطال العسكريين حين يلاحظون بأن جرائمهم الواقعية هزيلة للغاية ، مقارنة بتلك الفكرة التي يعجزون عن بلوغها إلا بفضل القوة العظمى للتفكير . إنه لا يحلم بنصر شامل ، أو بسلطة يكون أثرها فاعلاً باستمرار .

-٨٢-

مرت بي سيارة شحن ، فصرخت عليها صرخة حادة وركضت وراءها ، حتى وقفت .

كان الرجل كبير السن ، يعتمر قبعة قطنية من تلك التي يعتمرها عمال وموظفو المدن ، سألته :

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى طرف صحراء السماوة . .

- خذ هذا البدوي معك وارمهِ هناك . .

لم يصدق جساس أذنه ، كنت فككت وثاقه ، وصرخت به :

- اهرب . . اهرب . .

كان قد صعد إلى الشاحنة من خلفها . . . ارتمى كما لو كان معزة أو شاة ، وأخرج رأسه وأخذ ينظر إليَّ بعينيه الدامعتين والمندهشتين ، لقد شعرت أمام الانحناءات : انحناءات الضوء ، انحناءات تلال الرمل ، بنوع من الروحانية العالية التي جعلتني أعيش بشكل جديد ، بنوع من الالتصاق النرجسي الذي يشدني بهذه المخاطرة ، كان الجنود يتذكرون

ليتخلصوا من قلقهم ، أمر لا يتعلق باليوميات الحميمية ، إنما يتعلق بالغايات التي تُسند إلى هذه الذكريات وهي تحجب عنهم الحاضر المخيف الذي يعيشونه . لقد كنت الشاهد الوحيد ، والناجي الوحيد الذي يخبر عن هذه المأساة . وحدث أن أصبحت كاتباً ، وها أنا بعد كل هذه الأعوام أشعر بالأسى لأن هنالك جنوداً كثراً قتلوا في كل مكان ، من دون أن يكون هنالك شاهد واحد على موتهم ، إنه نوع من العجز حين يفرض التاريخ على الناس نوعاً من النسيان المطلق ، نوعاً من العجز حيث لا شهود في الحرب على الموت أبداً ، بل يصبح الموت هو الشاهد الوحيد على نفسه ، هكذا يُصنع التاريخ من بعض عتمات الأحداث ، ومن الجنود الذين لا يشهد على موتهم أحد .

وبعد أن غابت الشاحنة التي حملت جساس وراء الأفق ، نزعت الكوفية البدوية ورميتها على الأرض ، وركضت في الفراغ .

اسطنبول–عمان

٢٠٠٨

KINGS OF SANDS

رواية
NOVEL

مُلوكُ الرِمَالِ



• هذه هي الطبعة الثالثة من رواية ملوك الرمال الّتي وصلت إلى القائمة الطويلة لجائزة البوكر العربيّة، وترجمت إلى عدد من اللغات الأجنبيّة، وتتحدّث عن مواجهة بين عناصر عسكريّة من جيش نظاميّ (الجيش العراقيّ) ومجموعة من بدو الصحراء تشكّك الدولة في ولائهم لها. الراوي هو أحد أفراد الجيش النظاميّ، وهو الناجي الوحيد من مجموعته، ويسجّل أحداث تلك المغامرة الدراميّة على لسانه (رواية فلسفيّة عن الزمن والتاريخ والعبث والحياة تسير في إطار حبكة مشوّقة، وصراع ضار بين البدو وجنديّ عراقيّ يكتب نشيده الخاصّ في فهم الصحراء والعيش فيها).

• **علي بدر** روائيّ عراقيّ حاز على العديد من الجوائز وترجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبيّة.

ISBN 978-614-419-041-4

9 786144 190418

